فــــى

تاريخ الأدب العباسى

إعـــداد

أ. د. محمود على السمان

عميد كلية اللغة العربية بإيتاى البارود

١٩٩٥/٩٤

" بسم الله الرحمن الرحيم "

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد سيد الخلق أجمعين ... وبعد

فمعروف أن العصر العباسي هو ازهى عصور الادب العربي أو هو العصر الذهبي للادب كما يصفه الواصفون من النقاد وهو كذلك بحق لان العصر الذى اجتمعت فيه الثقافة العربية الاصلية والثقافات الاجنبية الوافدة ، والذى امتزجت فيه الدماء العربية مع دماء اصحاب البلاد المفتوحة وكم كان أثر الثقافتين الفارسية واليونانية كبيرا فى تطوير الثقافة والادب العربيين .

وسوف نقرأ فى هذا الكتاب ما يمتع ويشبع ويروع من هذا التاريخ الادبى العظيم بكل ما اشتمل عليه من أحداث ومن شعراء وكتاب بما يطلعنا على بعض عظمة هذا العصر العظيم الممتد فى التاريخ وفى الارض ، وسوف نتعرف رموز ذلك العصر من الشعراء كأبى نواس وأبى العتاهية والبحترى وابن الرومى وابن المعتز والشريف الرضى والسرى الرفاء ، وكالمتنبى والمعرى وابن المعتز والطغرائى والبهاء زهير وابن الفارض ومن الكتاب كابن العميد والقاضى الفاضل والعماد والهمذانى والحريرى ...

ومن كل ذلك سوف نطمئن الى أن تراثنا وبخاصة فى ذلك العصر تراث عظيم فى كل شئ ، ولا سيما فى الادب ، وأن علينا ان نحافظ عليه بالامتداد به بما يجعله موصولا فى الاجيال الجديدة الحالية والقادمة تحقيقا لهدف اعظم وهو تبين عظمة الخالق جل وعلا فى بيانه المعجز _ القرآن الكريم .

والله ولى التوفيق ... د . محمود السمان

القســـم الاوّل

العصـــر العباســــــــــــــــــــــــى الاوّل

العصر العباسى الأول *

(من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٣٣٤ هـ)

الحياة الإسلامية فى هذا العصر

قدمنا أن الأمة العربية كانت محتفظة بعربيتها وإسلامها فى زمن الدولة الأموية بالرغم من اقتباسها بعض نظم الحكم والحرب والسياسة والإدارة من الأمم ذوات الحضارات القديمة التى فتحت بلادها ، فكانت أكثر المناصب الرفيعة فى الدولة مقصورة على العرب ، وجمهرة جيوشها من العرب . وكانت عربية الصبغة فى شارتها وملبسها ومآكلها . فكان تعصبها للعرب والعربية مما أحرج صدور الأمم الداخلين فى طاعتها ودينها ، وجعلهم يتمنّون زوالها ، وشاركهم فى ذلك قبائل اليمانية لتعصبها لمضر عليهم مع أنهم الاصل فى قيام دولتها .

فلما قامت الدعوة العباسية فى خراسان ، على أساس التسوية بين الشعوب الإسلامية والقبائل العربية فى الحقوق والمعاملة ، ترامى فى أحضانها فرس خراسان وعربها من اليمانية ، فاكتسحت بهم الدولة الأموية ومنحتهم ما وعدتهم به ، بل غلت فى حبها للفرس واختصتهم بكثير من المزايا ، فكان لها منهم قواد جيوش وولاة وحجاب ووزراء وكتّاب . ونقلت حاضرتها إلى جانب المدائن عاصمة الفرس القديمة اعتزازا بالفرس وثقة بهم . ونقلت نظامهم الكسروىّ فى تنسيق دواوين الدولة وأساليب الحرب ، وحاكتهم فى الأبنية والمساكن والملابس حتى الاحتفال بالأعياد الوطنية الفارسية ، فاصطبغت الدولة العباسية فى جملتها بصبغة فارسية ، إلا أن حضارة الفرس لم تكن مؤسسة على ثقافة علمية فى الرياضة والطب والهندسة وعلوم الطبيعة والمنطق والحكمة ونحو ذلك مما اقتضته الحضارة اليونانية ، بل إن الفرس أنفسهم عند ما أرادوا التوسع فى العلوم اقتبسوا بعضها من اليونان ،

* من كتاب " المفصل فى تاريخ الادب العربى " للاستاذ احمد الاسكندرى وآخرين جـ٢ سنة ١٩٣٦

وترجوه إلى الفارسية زمن كسرى أنوشروان، فرأى أبو جعفر المنصور محاكاتهم فى ذلك فأخذ يقتبس أيضا لترقية دولته من الحضارة اليونانية ، وتابعه أحفاده فى ذلك . وكان بفارس والعراق والجزيرة وشمالىّ الشام بقايا شعوب سامية وآرية أخذوا بحضارة اليونان زمنا ثم دان بعضهم بالنصرانية ، وبقوا على معرفة باللغة اليونانية ، فنقلوا للخلفاء علوم اليونان ، وتعلمها منهم علماء العرب وهذبوها ونبغوا فيها ، وامتزجت مسائلها بعقائد المسلمين فى المباحث الإلهية واستعملت طرق برهاناتها وجدلها فى إثبات أصول الفقه، فأصبحت حضارة الدولة العباسية متشكلة بشكلٍ فارسى فى سياستها وإدارتها ومعيشتها ، وبشكلٍ يونانىّ فى ثقافتها العلمية الكونية وبشكل إسلامى فى اعتقادها .

ثم أخذ نفوذ العرب السياسى فى الدولة يضمحل بالتدريج ، فلم يكن لهم بعد قرنٍ فى المشرق وخراسان شأن سياسى يذكر ، وزادهم ضعفا قطع المعتصم أرزاقهم من جميع دواوين الجند وإحلال مواليه من الترك محلهم ، فاندمجوا فى غمار العامة وتكسبوا بالزراعة والحرف ، وضعفت فيهم النّعْرةُ العربية ، فامتزجوا بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمجاورة . وتكوّن من مسلمى هذه الشعوب أمة مسلمة ذات حضارة ممتزجة من حضاراتٍ شتى ، فيها محاسن هذه الحضارات وعيوبها، ولكن الحرية التى مُنحتها الفرس والشعوب المستعجمة استغلها كثير منهم فى الشر ، ففشا فيهم كثير من أمراض هذه الأمم الاجتماعية والخلقية التى كانوا يخفونها، فجاهروا بها، وجاهروا بكثيرٍ من عقائد الزندقة والإلحاد تنبه الخلفاء لخطرالعاقبة فتتبعوا الزنادقة والملحدين والفساق قتلا وحبسا، وتجردت طائفة لمقاومتها بالوعظ والقَصَص عن الأنبياء والصالحين والترغيب فى صالح الأعمال والترهيد فى الدنيا والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتشدّد الحنابلة (وهم جل العامة فى بغداد) فى الإنكار عليهم ، وكان لهذه الطائفة المقاومة للمتهتكين والفساق وعاظ وقصاص وخطباء وشعراء منهم أبو العتاهية .

فأجدى عملهم بعض الإجداء ؛ ولكن عدواها كانت قد سرت فى بغداد بين الكتاب والشعراء من طغامة الموالى من الفرس وأهل السواد ، ومنهم سرت إلى أمثالهم من بعض السلائل العربية . فأثر ذلك فى اللغة والأدب تأثيرا بينا .

تأثر الأدب بالحضارتين الفارسية واليونانية

كان تأثر الأدب العربى فى الدولة الأموية بحضارات الأمم المغلوبة للعرب قليلا محدودا : لأن الأدب فى ذلك العصر كان محصورا فى الشعر والخطابة وبعض الرسائل . وكان كل فحول الشعراء والخطباء نشئوا إما فى بلاد العرب ، وإما فى البصرة والكوفة ؛ فهما معسكران عظيمان بنتهما العرب وأسكنتهما مقاتلتها من الفاتحين وأبنائهم . ولم يكن قد تم استعراب العجم ولا انتشرت ثقافتها بينهم . ولم يكن كذلك شأن الأدب فى العصر الأول من الدولة العباسية ؛ فإن من هم بالاستعراب من أبناء الفرس فى العراق وفارس وخراسان ، ومن غيرهم فى الجزيرة الفراتية والشام ومصر ، وأخذ نفسه بالثقافة الإسلامية ، وتعلم العربية لم ينضج استعداده لأن يمتزج بالعرب ويمترجوا به إلا فى أواخر الدولة الأموية ؛ فلم يظهر لاستعرابه ثمرة إلا فى صدر الدولة العباسية ، فكان لكل من الحضارتين الفارسية ، واليونانية المتمثلة فى بقايا السريان والنبط والروم أثر فى أدب اللغة منذ ذلك الحين .

تأثير الحضارة الفارسية — فلما جاءت الدولة العباسية بحرية الشعوب المسلمة على اختلاف أجناسهم وتغيل الفرس مزايا حرم منها العرب أنفسهم ، كان هؤلاء المثقفون منهم بالثقافة الإسلامية العربية أول من استجاب للدعوة العباسية ، واقتدى بهم كل من تطالّ إلى شرف الرياسة أو سعة الجاه فى هذه الدولة ، فأسلم الكثير منهم مخلصا للإسلام أو منافقا ، وهبوا يتعلمون العربية وأدبها ، ويتفقهون فى الدين ، حتى كان منهم وممن قبلهم من مخلصهم أئمة للإسلام فى التفسير والحديث والفقه والعربية ، وأخذ عنهم المسلمون عربا وغير عرب أصول دينهم وأدب لغتهم ،

وكان منهم كبار الكتّاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء (الكتابة الفنية) فى الدواوين ، وكان منهم شعراء أحدثوا أحداثا جديدة فى أغراض الشعر ومعانيه وأسلوبه وأوزانه وقوافيه ، ونقلوا للخلفاء والأمراء كثيرا من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وسير ملوكهم وأبطالهم وقصصهم وأسمارهم وخرافاتهم المحكية على ألسنة الطيور والبهائم والجن والشياطين .

وكاد منافقوهم للإسلام والمسلمين كيدا عظيما ، فدسوا على أهل الغفلة كثيرا من الأحاديث المكذوبة على رسول الله وعلى أصحابه ، وصنعوا على ألسنة الأعراب شواهد من الشعر وقصائد طنانة نحلوها فحول الشعراء ، ونقلوا إلى العربية فى السر كثيرا من كتب زنادقة الفرس وملاحدتهم ، فأفسدوا عقول كثير من الناس .

تأثير الحضارة اليونانية — وكانت الشعوب الداخلة فى طاعة الفرس والروم من بقايا الأمم السامية واليونانية قد ورثوا عن قدمائهم حضارات مختلفة ، وأخصها الحضارة اليونانية من الحكمة والرياضة وعلوم الطبيعة والمنطق والفلك والجغرافية والموسيقى ، وكانت هذه العلوم قد امتزجت بمباحث النصرانية واليهودية ودُرِست فى كنائسها وبِيَعِها باللسان اليونانى القديم ، فنقل خلفاء العباسيين كتب هذه العلوم على أيدى العارفين باليونانية ، وبعثوا بالبعوث العلمية إلى مدن الروم والقسطنطينية لتعلم اليونانية وترجمة كتبها ، فنقلوا معظمها إلى العربية وتعلمها المسلمون وحذقوها وصححوها ، فكان لها تأثير كبير نافع فى المباحث الدينية من علم الكلام وأصول الدين وصناعة الجدل والمناظرة ، وإدخال قضايا العلوم ومذاهب الفلاسفة فى الشعر العربى ، وتأثير سئ فى عقول المستضعفين ، فأضاف إلى فرق الملاحدة فرقا أخرى ، وظهر أثر ذلك فى الشعر والأدب . وحدثت فى كتب العلم لغة تأليفية تقاس بمعيار المنطق لا بالبلاغة العربية .

الشعر فى العصر العباسى الأول

الشعر فن جميل تُبْهِجُ النفس محاسنه كما تسترعى البصر محاسن التصوير، وتُشَنِّفُ الأذنَ محاسنُ الموسيقى والغناء ؛ فهو كبقية الفنون الجميلة مُتْعَةٌ تُطلب من أربابها لتكميل الحياة المهذبة ؛ فلا جَرَمَ أن كانت صناعة الشعر العربى رائجة السوق عند ما بلغت العرب مرتبة طلاب الكمال، أى فى أواخر جاهليتها ، وفى صدر إسلامها، وعند امتداد سلطانها إلى أكبر مدى فى حكم بنى أمية ؛ غير أن نَظْمَه وطلبه للاستمتاع به كانا مقصورين على العرب ؛ إذ لم تكن العجم بلغت بعد من التعرب والتفصح درجة تقول فيها الشعر الجيد الذى يُزَاحِم الشعر الفصيح المتخرجَ شعراؤه فى بوادى العرب . وإنما تهيأ لهم ذلك أو كاد عند ما شارفت دولة بنى أمية الزوال، فوجدوا من عطف الدولة العباسية على الأعاجم، وبخاصة الفرس القائمون بدعوتها، معرضا يعرضون فيه نفائس شعرهم، ويفوزون فيه بأكبر الجوائز ؛ إذ كانوا قد جمعوا فى شعرهم بين فصاحة البداوة، وبداعة الحضارة . وبمثل ذلك حَظِىَ مُتَحَضِّرة العرب من أهل الكوفة والبصرة وقرى الجزيرة الفراتية وشرقى الشام الذين تعلموا العربية بالصناعة كالعجم، وسموا معهم لذلك بالمحدَثين والمولَّدين . فزاحم شعراء الحضر شعراء البادية عند عظماء الدولة ، وحلوا عندهم محل السُّمار والمحاضرين والندماء، بل رقى بعضهم إلى رتبة الوزارة والولاية كمحمد بن عبد الملك الزيات ومسلم بن الوليد وأبى تمام ، إلى أن خفت صوت شعراء البادية فى أواسط هذا العصر .

وقد حَفَلَ الخلفاء العشرة الأولون من خلفاء بنى العباس بالشعر والشعراء فعقدوا لهم مواسم سنوية يعقدون فيها للشعراء ، ويستمعون لقصائدهم، ويمنحونهم

الجوائز على حسب إجادتهم أو موافقة شعرهم لسياستهم : إبقاء على مَنْقَبة جميلة من مناقب العربية وترفيها على أهلها . وشاركهم فى ذلك وزراؤهم وعمالهم ورؤساء دواوينهم من الفرس وغيرهم ، حتى كان منهم شعراء وأدباء لايقلون عن المتكسبين بالشعر .

فبلغ الشعر فى هذا العصر غاية لم يبلغها بعده إلا عند المتنبى ، وهو ممن أدرك هذا العصر ، وإن لم تكن هذه الغاية كل ما كان يرجى للشعر العربى من الكمال ؛ وذلك لانكفاف خلفاء العرب وأمرائهم عن شد أزره بغلبة عبيدهم من الترك والديلم على أمرهم ، واستحياء كثير منهم لآداب لغتهم .

ومع تفنن شعراء المولدين فى أغراض الشعر ، وإبداعهم فى معانيه ، وترقيقهم لأساليبه ، لم يزالوا فى الجملة محافظين فى إنشاء القصيدة على الأوضاع الموروثة عن العرب منذ جاهليتها فى بنائها على قافية واحدة ووزن واحد ، وفى ابتدائها بالغزل والنسيب بذكر الديار والأطلال والظعائن ، ووصف الناقة ، والرحلة فى الفلاة ووصف ما فيها من الوحش والصيد ، والتهيد بذلك للغرض المطلوب من مدح أو تهنئة أو هجاء ، وإن لم يكن الشاعر سلك بادية أو ركب ناقة . وعلتهم فى ذلك إبقاؤهم لذكرى وطنهم وتظرفهم بالتشبه بالأعراب فى أخص خصالهم فى شعرهم ؛ على أن بعض الشعراء من سلائل العجم كأبى نواس لم يلتزم ذلك فى شعره ، وطالما نعى فى مطالع قصائده على شعراء الحضر المحدثين الذين يسلكون مسلك الأعراب ، واستبدل به الابتداء بخمرياته ومجونياته ، أو وصف القصور والبساتين وركوب السفن بدل النوق ، وجاراه كثير من أمثاله .

ويمكن إجمال التغيرات التى طرأت على الشعر مدة القرنين الأولين من خلافة بنى العباس فى أغراضه وأسلوبه وأوزانه وقوافيه فيما يأتى :

أغراضه — نُظِم الشعر هذا العصر فى أغراض نَظَمَتْ فيها العرب من قبل ، ولكنها تشكلت بشكلٍ خاص فى الدولة العباسية أو كثُر استعمالها فيها ، وفى أغراض ابتُدِعت ابتداعا .

فمن الأغراض التى تشكلت بشكل خاص أو كثر استعماله فيها :

(١) استعماله فى العصبية — فقد كانت مقصورة قبلُ على المفاخرة بين بعض قبائل العرب وبعض ، فزادت عليها العصبية بين العرب والعجم كما فى شعر الشُّعوبية ، ولم يكونوا يجسرون على قوله فى دولة بنى أمية ؛ وبين أرباب العلوم والصناعات كنحاة البصرة ونحاة الكوفة ، وبين مختلفى المذاهب من الفقهاء والمتكلمين .

(٢) استعماله فى السياسة بين شِيعة العَلويين وشيعةِ العباسيين — ولم يكن قبل خلاف بين الشيعتين بل كانوا جميعا يسمَّوْن شيعة بنى هاشم المعارضة لشيعة بنى أمية ، وفى مظاهرة خليفة أو ولىِ عهد على منافِسٍ له من العباسيين ، وفى نقدِ سياسةِ الدولة العباسية فى إيثارها العجم على العرب ، وفى توليتهم إياهم مقاليد أمور الدولة .

(٣) تنوع الوصف — فقد تنوع وتشكل بأشكالٍ شتى : من وصفِ القصور والبساتين ومجالس الأنس والمصانع والآثار القديمة ومصايد الطير والسمك ووصف أنواع السفن المختلفة : من سفن السفر والانتقال وسفن القتال ، ووصف أحوال الطبيعة وأحوال النفس وغير ذلك من الأمور الدقيقة .

(٤) زيادة استعماله فى المجون والخلاعة والتهتك وحكاية المخازى والفسوق — وبعض ذلك قد كان فى عصر الأموية بحال لم تبلغ حد البشاعةِ التى كان عليها فى الدولة العباسية ، ومن شعراء هذا الصنف المتَهتِّك أبو نواس وكثير من أمثاله .

(٥) نظمه فى الحكمة وضرب المثل — وكان يقال منه القليل فى الجاهلية وصدر الإسلام وبنى أمية فى خلال بعض القصائد ، ثم لما ترجمت حكمة اليونان والفرس والهند أدخل الشعراء كثيرا منها فى شعرهم وزادوا عليها كثيرا من اختراعهم، ومن أشهرهم صالح بن عبد القدوس وأبو تمام .

ومن الأمور التى ابتدعت فى أغراض الشعر :

(١) الغزل بالمذكر — ولم تكن تعرفه العرب قط، وإنما صدر عن المستهترين بالفسوق والمجون من أبناء الموالى ، وسرت عدواه إلى من يخالطهم من سلائل العرب ، ثم استطار شره وعمت بلواه . وكان أشد من أشاد به وأذاع سره أبو نواس والحسين بن الضحاك وأشباه لهما .

(٢) إغراق شعراء المسلمين فى وصف الخمر — وكان بعض شعراء الجاهلية يصفها ثم نهى الإسلام عن ذلك فلم يصفها إلا بعض النصارى كالأخطل . ولما ساءت الحال فى البضع عشرة سنة الأخيرة من حكم بنى أمية نظم فيها بعض المجّان والمستهترين بالمجون من الأمراء مقطّعات ، ونسب إلى الوليد بن يزيد بعض ذلك صحيحا أو منحولا بقصد التشنيع عليه من منافسيه من أهل بيته خاصة ، ومن الناقمين على بنى أمية عامة .

وكانت نتيجة الحرية التى نالها الأعاجم فى صدر الدولة العباسية أن جهر كثير من شعرائهم بالإغراق فى وصفها ، واستقصاء كل ما يتعلق بها مما لم يكن له نظير فى جاهلية ولا إسلام .

وحاول الخلفاء والولاة ردعهم عنها بالحبس والضرب فلم يجد شيئا ، وذاع القول فيها حتى بين من لم يشربها ، وعدوا ذلك تظرفًا وتملحا . وأكثر من أغرق فى ذلك أبو نواس ثم جاراه غيره .

(٣) الترهيد فى الدنيا ونعيمها والتذكير بالموت والنهى عن الاسترسال فى الشهوات واللذات — وكان ظهور هذا النوع ضروريا ليكون لسان حال أهل الجد من المسلمين كالفقهاء والعلماء والمتكلمين والمحدثين وأهل الورع والزهادة يضادون به الفساق من الشعراء والكتاب ومجان الموالى ومن جاراهم من سلائل العرب .

وبطل هذه الغارة أبو العتاهية ، وربما كايده بعض الشعراء المجان كأبى نواس ؛ فنظموا فى الزهديات قصائد لا تقل فى الصناعة عن شعر أبى العتاهية ، ولكنهم لم يكونوا مخلصين فى شعرهم ، وإنما كانوا يقولونها إظهارا لمقدرتهم فى صناعة الشعر .

(٤) تأديب النفس وتهذيب الناشئين بنظم القصص والحكايات على ألسنة الحيوان والإنسان : وأول من فعل ذلك أبانُ اللاحقىُّ من صنائع البرامكة ؛ نظم لهم كتاب كليلة ودمنة فأجازوه بجائزة جليلة ، وتابعه فى ذلك غيره .

(٥) ضبط مسائل الفقة والعبادات وقواعد العلوم — وظهرت فائدة هذا النوع فى استذكار العلوم واستخدمه المشارقة والمغاربة إلى وقتنا هذا .

لفظه وأسلوبه ومعانيه — ظهر أثر الحضارة والتأنق وسلامة الذوق فى تخير ألفاظ الشعر وأساليبه وفى تأدية معانيه أكثر مما ظهر فى أغراضه : لاستعمال الروية ، وقلة الارتجال ، والإنحاء عليه بالتنقيح والتهذيب ، والميل به إلى جانب الرقة والسهولة مع بقاء جزالته وفخامة عبارته (فى غير الهزل والمجون) من مثل مدائح الخلفاء والوزراء والولاة ورثائهم والفخر والطَّرد .

غير أن الشعراء المتحدّرين من سلائل أعجمية أدخلت فيه كثيرا من الألفاظ الفارسية والسوّادية من أسماء المآكل والملابس وآنية المائدة والشراب وأدوات الزينة والصناعات ، فما كان منه فى أول الدولة قبل أن تفسد ملكة اللغة فى الأمصار اعتبر معربا يصح استعماله فى الفصيح وإلا فلا . وأكثر من فعل ذلك أبو نواس لشيوعيته وعصبيته للفرس .

وكذلك تعمد فيه هؤلاء الشعراء استعمال بعض الألفاظ والتعبيرات والأساليب الكلامية وبعض التشبيهات المستملحة فى القرءان والحديث وشعر العرب مما سمّوه بديعا . وأول من تعمّده بشّار بن برد ثم أكثر منه مسلم بن الوليد حتى عدّوه أول من أفسد الشعر بتكلف البديع . وأعجب البديع أبا تمام فأفرط فيه . ثم تابعهم شعراء العصور التالية ، فاستكثروا من أنواعه واخترعوا منها ما لم ينطق به العرب . كما دخل فيه كثير من تعبيرات العلوم والفنون والصناعات التى حدثت فى صدر الدولة العباسية وشاع استعمالها حتى خالطت لغة الأدب .

أما معانى الشعر فقد روعى فيها دقة التصور والتخيلات البديعة وتركب التشبيهات والاستعارات ، وامتزجت بالروح الفلسفى والقياس المنطقى فى القرن الذين نشئوا فى عصر المأمون وما بعده من أمثال أبى تمام وابن الرومى وغيرهما . ولقلة تملق كثير من الشعراء بالروح الدينى أغرق الشعراء فى تملق الممدوحين بأوصاف الإله والأنبياء ، وتبع ذلك كثرة المبالغات فى كل أوصاف الشعر وأحكامه .

أوزانه وقوافيه — وراج فى هذا العصر استعمال الأبحر القصيرة التى لم ينظم منها العرب إلا قليلا فى أغراض المجون والهزل والتغنى بالشعر ومقطّعات الهجاء .

ونظم المولدون من أوزانٍ غيرِ أوزان العرب اخترعوها[١] ، وعدلوا أحيانا عن إنشاء القصيدة الطـويلة على قافيةٍ واحدة فنظموها مقطعاتٍ كلٌ منها على قافيـة خاصة . وكانت نتيجة ذلك ظهور نوعين من الشعر اشتهر استعمالها .

أولها — الشعر المزدوج — فهـو يتألف من مشطورين على قافيـة ثم من مشطورين آخرين ، وهكذا . وأكثر ما كان يستعمل فى نظم الأمثال وحكاياتِ الحيوان ، ونظم القصص ، وقواعد الفقه والعلوم . (راجع المنتخب) .

وثانيهما — الموشَّح — ويظهر أن أول من نظمه ولكن بغير هذا الاسم ابن المعتز[٢] ؛ ولكن الأندلسيين والمغاربة أمعنوا فى كثير من أنواعه ، وسمـوه بهذا الاسم ، وأعجبت طريقتهم المشارقة فنظموه على طريقتهم فى العصور التالية بعد هذا العصر مع تنويع القوافى فى شطور والتزامها فى شطر أو شطرين .

---

(١) وهذه الأوزان كثيرة جدا منها أوزان اخترعها الخليل بن أحمد من عكس بحور العرب . ومنها أوزان اخترعها أبو نواس وابن المعتز وغيرهما .

(٢) كقول ابنَ المعتز :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همت فى غـرته

وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق إليه واتكا وسقانى أربعا فى أربع

ما لعينى عشيت بالنظـر

أنكرت بعدك ضوء القمر

وإذا ما شئت فاسمع خـبرى

عشيت عيناى من طول البكا وبـكى بعضى على بعضى معى

وأشهر ما اخترع فى هذا العصر من الشعر العامى المواليا ، وأول من نظمه مولاة للبرامكة فى رثائهم (١) .

---

(١) وذلك أن هرون الرشيد لما فتك بالبرامكة أمر ألا يرثوا بشعر فرثتهم مولاة لهم بمقطعات مقفيات الشطور أربعة أربعة ووزنها من بحر البسيط إلا أنه بعبارة عامية ملحونة ، ولذلك لا يحسب من الشعر . ومن هذه المقطعات قولها فيهم .

يا دار أين ملوك الأرض أين الفرس ... أين الذين حموها بالقنا والترس

قالت تراهم رمم تحت الأراضى الدرس ... سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

وكانت تصيح عقب كل مربعة : واموالياه فاقتصر فى تسميته على لفظ (المواليا) ويظهر أن الذى كان ينظمه يسمى بالعامية (الموال) كما يسمى أهل الصعيد الذى ينظم (الواو) المواوى ثم أطلق (الموال) على نفس النظم .

أبو نواس

هو أبو عليّ الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصبَّاح الحكميّ الشاعر المشهور الجادّ الماجنُ .

نسبه ونشأته — اضطربت أقوال أبي نُوَاس في نسبه ؛ فكان في أول أمره ينتسب فارسيا من أبناء الأكاسرة ، ثم انتسب مُضَريّا ، ثم هجا مُضَر ، وانتسبَ يمانيا من قبيلة حَكَمٍ من سَعْد العشيرة ، وافتخر باليمن ، ثم اعترف أنه من مواليهم . وهذا الزعم الأخير هو ما اشتهر بين الناس ، فقال بعضهم : إن جدّه كان من موالي عبد الله بن الجرَّاح الحكميّ والى خراسان زمن بنى أمية ، وإن أباه كان من أهل دِمَشْق من جند مروان بن محمد ، انتقل إلى الأهواز في حامية رابطت بها ، فتزوج بها امرأة فارسية تسمى جُلَّبَانَ فأتت بأبي نواس وغيره . ثم انتقلوا به إلى البصرة ، وهو صبي صغير ، فحفظ بها القرءان وشدا شيئا من العربية والأدب . ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، فأسلمته أمّه إلى عطّارٍ بالبصرة يَبْرى عُود البخور ، ولكن احترافه لم يمنعه مُعاناة الأدب والشعر . واتفق أن قدم البصرة والبةُ بن الحُبَاب الأسديُّ الشاعر الكوفي الماجن الخليع ، فرأى أبا نواس عند العطار ، وحادثه في الأدب ، وكان أبو نواس يبلغه شعره في الغزل والمجون فيُعجبه ويحبّ أن يراه ؛ فلما تعارفا أغراه والبةُ بالخروج إلى الكوفة لِتخريجه في الشعر فرحل معه إلى الكوفة ، وعرّفه بأدبائها وخلعائها . وأقام معهم زمنا يعيش بخدمتهم ، ويتعلم اللغة والنحو والأدب من علماء الكوفة . وأجاد الشعر على طريقتهم في الغزل والمجون وتاقت نفسه إلى الاستزادة من غريب اللغة ، فأخرجه والبةُ مع قوم من بنى أَسَدٍ إلى البادية ، فأقام بها سنة ، ثم انحدر منها إلى البصرة وطنه الأوّل وأقام بها .

ومن هنا يبتدئ طور تكسبه بالشعر واشتهاره بين المتأدبين ، فأخذ يتم ما عرف من اللغة والحديث على علماء البصرة ، وأخصهم أبو عبيدة وخَلَفُ الأحمر. ويقال إن خلفا هو الذى كنّاه بأبى نواس تعصبا معه لليمانية لأن (ذا نواس) من ألقاب ملوك حمير ، فحُوِّل إلى أبى نواس . وقيل كُنِّى بذلك لذؤابتين كانتا له فى صغره تنوسان على عاتقيه .

وحفظ ألوف القصائد والمقطّعات والأراجيز ، حتى صار حجة فى اللغة ورواية الشعر ، ونظر فى علم الكلام ونحل الأمم وأرباب المذاهب فى عقائدهم ، ولكن كثرة علمه لم تغير من خبث تنشئته بالكوفة على يد شيطانه والبة ، فأخذ يتكسب بمدح بعض الرؤساء والحكام وأشراف الناس تارة ، ويهجوهم تارة ، ويُشبّب بجواريهم وغلمانهم تارة أخرى . ويُنشد فى شعره جهرة بوصف الخمر ومجالس شرابها وندمانها وسقاتها ، ولم يكن ذلك مألوفا عند المسلمين بعامّة وعند أهل البصرة بخاصة . فاشتد النكير عليه واشتهر بينهم بالمجانة والاستهتار بالفسوق ورُمِى بكل آبدة .

وفى مدة إقامته هــذه بالبصرة تظاهر بتعشّق جارية أديبة لأحد الثقفيّين تدعى جنان مع شدة صدودها عنه وكراهيتها له ، وأكثر من التشبيب بها فى شعره فى قصائد ومقطعات خاصة بها عبثا وتماجُنا شأنه مع كل جارية شبّب بهـا ؛ إذ كان استهتاره بغزل المذكر أشهر ، وهو إليــه أميل . فثقل على أهل البصرة تماجنه ، ولولا أنه كان خفيف الروح طيب الحديث حسن الفكاهة مليح النادرة غزير الأدب والعــلم لفتكوا به . ثم رأى هو أن البصرة على رَحْبها تضيق برغبة نفسه من الاستمتاع باللذائذ وطيب العيش وسعة النفقة ، ورأى أن دار السلام أنفق سوق لشعره الجيد من البصرة ، وأنه أهل لأن يعرضه على ملوكها وخلفائها ، فانتقل إليها وسنه قد أربت على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء من أهل بيت

الخلافة وبعض الرؤساء ، وبلغ خبره الرشيد ، فأذن له فى مدحه فمدحه بقصائد طنانة ، ولم يَرُجْ شعرُه كثيرا عند البرامكة ، فكان يمدحهم تارة ويهجوهم أخرى حتى انتهت دولتهم .

وسَمِع بكرم الخصيب عاملِ مصر للرشيد ، فقصده ومدحه بعدة قصائد من أبلغ شعره ، وحصَّل مِن جوائزه ومن جوائز أعيانِ أهلِ مصر أكثر من ثلاثة آلاف دينارٍ أنفق أكثرها فى عامٍ قضاه فى الفسطاط يَتَنَعَّم بها ويطرب . ثم رجع إلى بغداد وأقام بها بقية عصرِ الرشيد . ولما ولِي الأمين الخلافة عكف على مدحه ، وكاد يبلغ فى عصره أُمنيَّتَه لولا ما كان يشاع عنه من سوءِ القالة فى تهتكه ومجونه . ولم يعش أبو نواس بعد موت الأمين إلا قليلا ؛ فاعتل مدة وساءت حاله . ومات فى بيت أحدِ أصدقائه من آل نَوْبخت سنة ١٩٦ هـ والمشهور أنه تاب قبل أن يموت .

شعره وأثره فى الأدب — كان شعر بشّارٍ بَرْزَخًا بين الشعر القديم والحديث ، وجاء بعده شعر أبى نواس فى فنونه وألفاظه ومعانيه مثالا مُحْدَثا جامعا لكل ما تصوَّره المحدثون فى الشعر من جدّ وهزلٍ وجزالة وسهولة ؛ فهو رأس المحدثين بعد بشار ، وأشهرُ مَنْ تَسَمَّتَ طريقَتَهُ فى الجدّ والهزل والهجاء ، غير أن بشارا كان لا يزال على بقية من الاحتشام والتوقُّر ؛ فلم يَتِف بالخمر فى شعره إلا إلماما ، ولم يعجبه الغزلُ بالمذكر ، ولم يسلك مسلك التأنث فى غزله مهما أسف فيه ورقق وسهل .

وأبو نواس سلك طريقته فى الهزل والمجون ، وركب رأسه فى الاستهتار بالمصارحة بالفسق والفجور ، وجاهر بالدعوة إلى شرب الخمر ووصفها وصفا لم يبلغه قبله شاعر لا فى جاهلية ولا إسلام ، وشذ عن مألوف العرب بصرفه التشبيب والغزل مِن أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر وخلع العِذار فى هذا الغزل

والخمريات حتى أصبح مثلَ سَوْءٍ لمن نشأ فى عصره أو بعده من الخلعاء والمُجّان ، حتى رسخ هذا الصّنفُ من الغزل والخمريات بعد حين فى أغراض الشعر وتَعَمَّدَه مَن لم يقع فى محظوره حتى الصوفية .

ولا يؤخذ من قولنـا : إن شعر أبى نواس كان أسوأ قدوة لكثير من نابتة عصره والعصور التى تليه أن الصورة المتكونة من أخباث شعره وأرفاثه تُمَثّل حالة المجتمع الإسـلامى فى خُلُقه ومقدار تَمَسُّكه بشعائر الدين على اختلاف مواطنه ، وخاصّـة العراقَ وبغدادَ ، إذ كان العصرُ الذى يعيش فيه هـذا الشاعرُ المـاجنُ فى البصرة والكوفة وبغداد هو عصر النّهضة الإسلامية فى التفسير والحديث والفقه والتوحيد واللغة والأدب والتاريخ والمغازى والفلسفة .

وإنما هو يمثل بيئة الفساد فى العراق التى انغمس فيها طبقة المترفين والفُتّاك والتى لا تخلو منها حاضرة مملكة عظيمة تملكُ ألوفَ الألوف من مختلف الأمم مهما تَصَعَّبَتْ قوانينها فى مطاردتهـا فى عصرنا هذا ، فكيف ببغداد ، وقد كان فيهـا مئات الألوف من سلائل سَبْىِ الأمم التى غلبها العرب على أوطانها لفساد أخلاقها ، وانحطاط نفوسها ، وقلة شعورها بالشرف ، وكان فيها أسـواقٌ نافقة للرقيق من الجوارى والقِيان والغلمان يبـاع بتفاوُت الأثمـان ، ويسهل اقتناؤه على السوقة والوضعاء الذين يستغلونه فى وجوه شتى من المكاسب .

وإذا جاز لنـا أن نجعل شعر شاعر واحد مرآة لحال طبقة من الأمة فشعر أبى العتاهية يمثل طبقة أهل الزّهادة فى الأمة ، وصالح بن عبد القدوس يمثل أهل الجد والتزمّت .

ولا يضير الرشيد والأمين فى شرفهما وخُلُقهما إعجابهما بشـعر أبى نواس وفـكاهته ، فكما عطفا عليه بإثابته على جيّـد مدحه لهما شـدّدا عليه النكير ، وعاقباه على تهتّكه فى قوله وعلى شرب الخمر عقابا شديدا ، فقد روَى المؤرخون أن

الرشيد سجنه فى هجائه مُضَر وأطال سجنه ، ثم سجنه مرة أخرى لتصريحه فى شعره بشربه الخمر والحث على شربها . وسجنه الأمين مرة فى شرب الخمر أيضا . حتى تاب عنها وعن ذكر شربها فى شعره وهدده بالقتل إن شربها . ثم سجنه مرة أخرى فى هجائه سليمان بن جعفر عم أبيه مدة طويلة حتى استشفع بوزيره الفضل بن الربيع فأطلقه .

ولم يطل حكم الأمين بعدُ كما لم تطل حياة أبى نواس بعده .

الصحيح والمنحول من شعره — إذا اشتهر عظيم بأمرٍ من الأمور نسب إليه كلُّ ما جُهل مصدره من هذا الأمر ؛ فمثلا نُسِب إلى حسّان كلُّ شعرٍ قيل فى النبوة ومناقضة قريش والأنصار وجُهل قائله . ونُسِب إلى أبى نواس كلُّ شعر جُهِلَ قائله فى أمورٍ اشتهر بها كالمجون والتهتك والمغالاة فى وصف الخمر وغزل المذكر والطَّرَد (أى صيد الوحش والطير) بل نُسِب إليه كثيرٌ من شعرِ خليعٍ ماجنٍ مثله وهو الحُسَين بن الضّحّاك وبعضُ شعر والبةَ بن الحباب وكلاهما دون أبى نواس فى الإجادة . وبالعكس أُهمِلَ تدوين كثيرٍ من شعره الحقيقىّ وخاصة ما كان منه فى الجديات ؛ إما لأنه قاله فى اغترابه فى الشام ومصر ، وإما لموتِ رواته قبل تدوينه أو ضياع الرقاع التى كتِب فيها ، لأنه لم يُدَوِّن ديوانَه بنفسه بل دَوَّنَه غيره بعد ثلاثين أو أربعين سنة مِن وفاته فى مجموعات تختلف قلةً وكثرة وصحة وفسادا ، وروى له جامع ديوانه المطبوع فى مصر بقايا قصائد له جُهلت وقِصَصا عن شعر كثير قاله فى مدح البرامكة وغيرهم وباد مع ما باد من آثارهم .

وعلى ذلك يظن أن أكثر الضعيف المنسوب إليه من نوع المنحول ، وأن باقِيَه يكون قد قاله ارتجالا بين قِيان وسُقاةٍ وخلعاءَ يسكرون معه لما يشاهد فيه من التأنث والتهالك وحديث النساء .

ومن العجيب أن الخلعاء وتجار الهزل لايزالون يحملون على أبى نواس كل آبدة من الهزل والمجون حتى فى عصرنا الذى نعيش فيه .

وصف شعره من حيث أغراضه ومعانيه وألفاظه — وقد قال أبو نُواس الشعر فى كل الأغراض ، وغلب عليه :

(١) الغزلُ الماجن بالمذكر والمؤنث والتفنن فى وصف الخمر وتشبيهها والدعوة إليها والنشوةُ بها وذكر سقاتها وندمائها وصبوحِها وغبوقها ، وتَغَلْغَلَ فى ذلك ماشاء .

(٢) ثم الهجاء وكان منه المقبولُ الذى سلك فيه مسلك التهكم والتنادر على المهجو ، ومنه المقذعُ الفاحشُ الذى سلك فيه مسلك العامة فى تسابِّها ومهاتَرَتِها ؛ فهجا الأفراد والجماعات والأمم : هجا مضر وقبائلها ، وفى هجائها حبسه الرشيد ، ثم هجا العرب وأهل باديتها منتسبا إلى كسرى . واستتبع هجوه لمضر خاصة أن افتخر باليمن ، وهجوه للعرب عامة أن افتخر بالعجم . وانتسب إلى كسرى ، وظهر بمظهر الشعوبية . وهجا نيل مصر لأنه رأى فيه تمساحا التقم رجلا .

(٣) ثم الطَّرْدُ ووصفُ الصيد من الوحش والطير وآلة الصيد من الكلاب والجوارح والخيل . وله فيه أراجيز تعد غاية فى فصاحة اللغة .

ولم يكن المدح والرثاء أهم مقاصده من شعره وإن تكسَّب بهما ؛ ولكن مدحه على قلته بالإضافة إلى بقية شعره أبلغ شعره وأجوده وأرصنه ، وله فيه قصائد عارضها فحول الشعراء ، ولا يزالون يعارضونها إلى اليوم .

ومن العجيب أن مِثل أبى نواس فى عبثِه وتماجنِه يُفْسِح للزهديات من شعره بابا واسعا اشتمل على مقطَّعات منها ماهو غايةٌ فى الباب ، وكانت جديرة أن تصدر عن أبى العتاهية . والحقُّ أنه لم ينظِم هـذا النوع إلا مكايدة لأبى العتاهية وتفوقا عليه وإظهارا لقدرته على النظم فى أى غرض .

ألفاظه واسلوبه — كان أبو نواس فى مدائح الخلفاء وأهل الجد والتوقُّر من الوزراء والولاة والقواد يُفَخِّم الألفاظ ، ويتخيرها ، ويُجيد رَصْفَها ، ويكثر من الغريب فيها ، ويسلك غالبا مسلك القدماء فى تقديم النسيب على طريقة العرب ، ووصف الرحلة إلى الممدوح .

وكان فى طَرَدِياته أعرابيا فى شَمْلَة لا يُصَدِّق مَن يقرؤها أنها صادرة من حضرى خليع .

والمشهور عنه فى قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم يُحى عليها بحذف الردىء والمكرر وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيونا ، فهو من أمثال زهير والحطيئة والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة قصيرة .

وكان إذا مدح أصدقاءه ومَن له عليه دالَّة راعى أسلوبَ الحضريين فى دَماثته ولينه ورقة نسجه . ومَهَّد للمدح بذم الديار والأطلال والنوق والجمال ودعا إلى معاقرة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغانى ومباكرة الرياض ونحو ذلك وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد .

وكذلك كان يرقِّق القول فى المقطعات والخمريات ، ويُسِفُّ إلى أن يقارب العامة فى المجونيات ويكثر فيها من الألفاظ المولدة أو الدخيلة .

معانيه — جمع أبو نواس فى شعره خلاصة من معانى شعر المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ، وأضاف إليها صورا جديدة من معانيه المبتكرة ومعانى الذين عاش بينهم من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وآدابها على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين فى الجد والهزل ، وأشهر من حاكاه منهم وصب على قوالب معانيه بشار ابن بُرْد .

ومن المأسوف عليه أن أكثر معانيه المبتكرة وتشبيهاته البديعة كانت :

أولا — فى الخمريات — فقد فاق فيها كل من سبقه من أمثال الأعشى والأخطل والوليد بن يزيد فيما نُسب إليه من الخمريات صدقا أو كذبا .

ثانيا — فى الغزل بالمذكر — ولا غرابة فى ذلك فعنه وعن شيطانه والبة شاع هذا النوع وذاع ، ومن معانيه فيه استمد شعراء المولدين بعده . على أن له فى الأغراض الجدية معانىَ لم يَحُم حولها شاعر كما أن له فيها وفى غيرها معانىَ منكرة : إما لِغُلُوِّه غُلُواً لا يقبله العقل ولا الدين ، وإما لتسفُّله فيها إلى درجة الكفر والإباحة والتهتك .

ونذكر هنا أمثلة من جده ، ومن هزله القليل الشُّنعة :

فمن جِدياته ما قاله يمدح الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين :

لقد نزلتَ أبا العباس منزلةً	ما إن ترى خلفها الأبصارُ مُطَّرَحا
وَكَلْتَ بالدهرِ عيْناً غيرَ غافلةٍ	من جُودِ كفِّك تأسو كلَّ ما جَرَحا

وقال يمدحه أيضا :

قولا لهرونَ إمامِ الهُدَى	عندَ احتفالِ المجلسِ الحاشدِ
أنت على ما بِك من قدرةٍ	فلستَ مثلَ الفضلِ بالواجدِ
ليسَ على الله بمستنكرٍ	أن يجمعَ العالَمَ فى واحدِ

وقال فى الموعظة :

ألا كُلُّ حيٍّ هالكٌ وابنُ هالكٍ	وذو حَسَبٍ فى الهالكين عَرِيقِ
فقُلْ لمقيمِ الدارِ إنك ظاعنٌ	إلى سَفَرٍ نائِى المحلِّ سحيقِ
إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ	له عن عدوٍّ فى ثيابِ صديقِ

وقال فى معنى الكبير ينشأ عن الصغير ، وفى الجد يتولد من الهزل ، وفى نافع ينجم عنه ضار :

أيَّةَ نارٍ قــدَحَ القــادحُ وأىَّ جِدٍّ بلغَ المــازحُ
لله درُّ الشَّيْبِ من واعظٍ وناصحٍ لو قُبِلَ الناصحُ
يأبَى الفتى إلا اتباعَ الهوى ومَنْهَجُ الحــقِّ له واضحُ

وقوله فى عزة النفس ولو صدرت عن غيره لكانت به أحرى :

ومُسْتَعْبِدٍ إخــوانَه بثَرائه لَبِسْتُ له كِبْرًا أبَرَّ على الكِبْرِ
إذا ضَمَّنِي يومًا وإياه مَحْفِــلٌ يُرَى جانبِي وَعْرًا يزيدُ على الوَعْرِ
أُخالِفُــهُ فى شَكْلِــهِ وأَجُرُّهُ على المنطِقِ المَنْزُورِ والنَّظَرِ الشَّزْرِ
وقــد زادنِى تِيهًــا على النــاسِ أنّنى أرانِى أغناهم ، وإن كنتُ ذا فَقْــرِ
فوالله لا يُبْــدِى لِسانِى حاجةً إلى أحدٍ حتى أُغَيَّبَ فى القبرِ
فلا يَطْمَعَنْ فى ذاك مِنِّى طامِــعٌ ولا صاحبُ التاجِ المُحَجَّبُ فى القصرِ
فلو لم أرِثْ فخراً لـكانت صِيانتِى عن الناس حَسْبِى من سُؤالى من الفخرِ

وكان قوله : (فلا يطمعن — البيت) سببا فى غضب الأمين عليه .

ومن هزلياته قوله فى الخمريات :

دَعْ عنكَ لومِى فإنَّ اللومَ إغراءُ وداونِى بالتى كانت هى الداءُ
صفراءُ لا تنزلُ الأحزانُ ساحَتَها إن مَسَّها حَجَــرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

وقوله :

فتمشَّتْ فى مفاصِلِهم كتمشِّى البرءِ فى السَّقَمِ
فعلَتْ فى اللُّبِّ إذ مُزِجَتْ مثلَ فعلِ النــارِ فى الظُّلَمِ

وقوله فى وصف سكير :

ومُستطيلٍ على الصهباءِ باكَرَها فى فِتْيَةٍ باصطباحِ الراحِ حُذَّاقِ
فــكلُّ كَيْفٍ رآهُ ظَنَّــهُ قَدَحًا وكُلُّ شخصٍ رآهُ قال ذا ساقِ

أبو العتاهية

هو أبو إسحاق اسماعيل بن القاسم المشهور بأبي العتاهية . وآباؤه من موالي عَنَزة إحدى قبائل ربيعة ، وكانوا باعة جِرار بالكوفة فنشأ بينهم أبو العتاهية ، واحترف بصناعتهم زمنا ، ثم ربأ بنفسه عن صناعتهم ، وطلب العلم والأدب ، وكان قد خُلِق مطبوعا على الشعر ، فنظمه فى معانى الخاصّة والعامّة بلفظ سهل وأسلوب لين مفهوم لكل الطبقات ، حتى ليُخَيَّلُ لقارئه من سهولته أنه نثر عادى غير أنه موزون . وكان فى صغره ينظمه فى الخلاعة والغزل ، ثم ترقّى إلى مدح الخلفاء . وخف شعره على المهدى وأهل القصر ، فأحب منهم فتاة مملوكة تدعى عُتبة وشهّب بها عامّة شبابه ، وطَمِعَ أن الخليفة يهبها له فزجره وعاقبه ؛ فلما يئس منها زهد فى الدنيا ورغّب الناس فى الزهد حتى اشتهر بالزهديات والوعظ . وكان عصره فى حاجة إلى مثله لشيوع الخلاعة والتمتع بين طبقات الموالى وكتّاب الدولة وبعض الشعراء . ومدح بعد المهدى ولده الرشيد .

وكان مع زهده بخيلا على نفسه وأهله وخدمه جمّاعا للمال ومات سنة ٢١١ هـ ببغداد .

وأكثر شعره فى عُتبة بادَ وانقرض ، وبقى له ديوان شعر فى الوعظ والزهديات مطبوع مشهور .

ومن قوله فى عتبة :

عينى على عُتْبَةَ منهلّةٌ ... بدمعها المنسكِبِ السائلِ
يا من رأى قبلى قتيلاً بكى ... من شدة الوَجْدِ على القاتلِ
بسطتُ كفّى نحوكم سائلا ... ماذا تردّون على السائلِ
إن لم تنيلوه فقولوا له ... قولا جميلا بدلَ النائلِ
أو كنتم العامَ على عُسرة ... منه فمنّوه إلى قابلِ

ومن مدحه للمهدى :

أتتــه الخلافةُ منقــادة   إليــه تجرِّرُ أذيالهَــا
فــلم تكُ تصلُح إلا له   ولم يك يصلُح إلا لها
ولو رامَها أحدٌ قبــله   لزلزلتِ الأرض زلزالهاَ
ولو لم تطعه بناتُ القلو   ب ما قبِلَ اللهُ أعمالها
وإن الخليفة مِن قول لا   إليه ليُبْغِضُ مَن قالهــا

وكتب بديها على ظهر كتاب :

ألا إننــا كُلُّنــا بائد   وأىُّ بنى آدمٍ خالــدُ
وبدؤهمُ كان من ربهمْ   وكلٌّ إلى ربه عائــد
فيا عجبا كيف يُعْصىَ الإلـــهُ   أم كيف يجحده الجاحد
ولِلهِ فى كل تحريكةٍ   وفى كل تسكينةٍ شاهد
وفى كل شىء له آيــةٌ   تدُلُّ على أنه واحــد

ومن أرجوزته التى قيل إنها تبلغ أربعة آلاف بيت فى الأمثال والحكم قوله :

حسبك مما تبتغيــه القوتُ   ما أكثر القوتَ لِمَنْ يموت
هىَ المقادير فدعنى أو فذَرْ   إن كنتُ أخطأتُ فما أخطأ القدر
إن الشبابَ والفراغَ والجِدَه   مَفْسَدَةٌ للمــرء أىُّ مَفْسَدَه

البحترى

هو أبو عُبَادةُ الوليدُ بن عُبَيد الطائىُّ البُحْتُرِىُّ :

وبُحْتُرٌ بطْنٌ من طيِّئ كانوا ينزلون بناحية مَنْبِجَ بين حَلَبَ والفُرات ، وهى بلاد أشبه بالبادية وإن لم تخل من خِصْب ، فهو بَدَوِىٌّ فى نشأته حضرىٌّ فى ثقافته ، إلا أنه لم يخالط ذوقَه الأدبىَّ تغلغلُ الفلاسفة وتعمُّقُ أهل النظر والاستدلال ، فكان شعره سهلا مطبوعا صقيل اللفظ سلس الأسلوب سريع الأخذ بلب سامعه ، فهو أشهر من استحق لقب شاعر بعد أبى نواس على الإطلاق ، ولم يأتِ بعده من شعراء اللغة العربية مَن يدانيه فى حُسْن نَسْج العبارة وجمال الأسلوب إلى وقتنا هذا .

واستفاد البُحْتُرِىُّ من صُحبة أبى تمام فى تصوير الخيال الجميل ، وفى حسن استعمال أنواع البديع حسنا فاق أستاذه فيه .

وتكَسَّبَ البحترىُّ بالشعر فقصد سُرَّ مَنْ رَأَى ، ومدح خلفاءها وأمراءها وأخَصُّهم المتوكلُ ، وخفَّ على قلبه ، حتى كان ينادمه فى مجالس أنسه على قذارته وقبح إنشاده ، إلا أن فصاحته غطَّت على معايبه . وقتل المتوكلُ وهو حاضر مجلسه ففر . ثم مدح خلفاء بغداد ورؤساء الدولة إلى أن مات سنة ٢٤٨ هـ .

وأهم ما اشتهر به البحترى من الأغراض النسيب والمدح والوصف .

ومن شعره فى الغزل قوله :

حبيبى حبيبٌ يكتُمُ الناسَ أنَّه ... لنا — حين تلقانا العيونُ — حبيبُ

يُباعِدنى فى الملتقى وفؤادُه ... — وإن هو أبدى لى البعادَ — قريب

ويعرِضُ عنى ، والهوى منهُ مُقْبِلٌ ... إذا خاف عَيْنًا أو أشارَ رقيب

فتنطِقُ مِنّا أعْيُنٌ حين نلتقى ... وتخرس منا ألسُنٌ وقلوب

وقال فى المدح :

دَنَوتَ تواضُعًا وعَلَوتَ مَجدًا ... فشأناك انحدارٌ وارتفاعُ

كذاك الشمسُ تَبعد أن تُسامى ... ويدنو الضوءُ منها والشعاعُ

وقوله فى الحكمة :

إذا ما نسبتَ الحادثاتِ وجدتَها ... بناتِ زمانٍ أرصدتْ لبنيهِ

متى أرتِ الدنيا نباهةَ خاملٍ ... فلا ترتقبْ إلا خُمولَ نبيهِ

ابن الرومى

هو أبو الحسن على بن العباس بن جُرَيج الرومىّ مولى بنى العباس كان جدُّه جريجُ مولىً لعبيد الله بن عيسى بن جعفر بن الخليفة المنصور .

ووُلِد حفيدُه الشاعرُ المتحدَّثُ عنه ببغداد سنة ٢٢١ هـ وبها نشأ وتعلم ، فخرج شاعرا كثير القولِ طويل القصائد بديع المعانى كثير الاختراع والتوليد فيها حسنَ الأوصاف والتشبيه لذّاع الهجاء قلّ من سَلِم من أهل زمانه من عَقْر لسانه ، ولولا أنه أغفل تهذيب شعره بجمع بين الغث والسمين ولم يسقط رديئه وأنه كان مضطرب الرأى فى الحكم على الناس والزمان مفرطا فى التشاؤم من كل شىء أكثر حياته لكان منقطع النظير فى شعراء العربية . وكفاه فخرا أن المتنبى أحد رواة شعره وجامعيه .

ومات ببغداد سنة ٢٨٣ هـ قيل مات مسموما سمه وزير المعتضد القاسم بن عُبَيْد الله فى خُشْكَنانة (بالكويت) .

ومن شعره قوله فى المدح :

المنعمون وما منُّوا على أحد ... يومَ العطاء ولو مَنُّوا لما مانوا
كم ضَنَّ بالمال أقوامٌ وعندهمُ ... وَفْرٌ . وأعطى العطايا وهو يَدّانُ

وقوله فى بغداد ، وقد غاب عنها فى بعض أسفاره :

بلدٌ صَحِبْتُ به الشبيبةَ والصِّبا ... ولبستُ ثوبَ العيش وهو جديدُ
فإذا تَمَثَّل فى الضمير رأيتُه ... وعليه أغصانُ الشباب تَميدُ

وقوله يصف صانعَ رقاقٍ :

ما أنسَ لا أنسَ خبّازًا مررتُ به … يدحُو الرُّقاقة مثلَ اللّمح بالبَصرِ
ما بين رؤيتها فى كفّه كُرَةً … وبين رؤيتها قوراءَ كالقمرِ
إلا بمقـدار ما تنداحُ دائرةٌ … فى لجّة الماءِ يُلقَى فيه بالحجَرِ

وقوله فى هجاء بعض الرؤساء وقد سأله حاجة فقضاها له وكان لا يُتوقع منه خير :

سألتك فى أمرٍ ، فجُدْتَ ببذلِه … على أنّنى ما خلتُ أنك تفعلُ
وألزمتنى بالبذل شكرًا ، وإنه … علىّ من الحرمانِ أدهى وأعضل
وما خلتُ أنّ الدهرَ يثنى بصرْفه … إلى أن أرى فى الناسِ مثلَكَ يُسأَلُ
لئن سرَّنى ما نلتُ منكَ فإنه … لقد ساءنى أن كُنتَ ممّن يُؤمَّلُ

وقوله :

وإذا امرؤٌ مدحَ امرأً لنوالِه … وأطالَ فيه فقدْ أطالَ هجاءَه
لو لم يُقدِّر فيـه بُعْدَ المُستقَى … عند الورود لمـا أطالَ رِشاءَه

ابن المعتز

هو أبو العباس عبدُ الله ابن أمير المؤمنين المعتزّ بالله .

وُلِد سنة ٢٤٧ هـ ونشأ بسُرَّ مَنْ رأى وبغداد ، وقرأ النحو على المبرّد من البصريين وثعلب من الكوفيين ، وقرأ الأدب وعلوم الأوائل على مُؤَدّبه أحمد ابن سعيد الدمشقي ، فخرج أديبا شاعرا بليغا مؤلفا معدودا من كبار علماء اللغة والأدب والتاريخ ، ولذلك خاف أصحاب السلطة في الدولة من الترك والكتّاب والوزراء أن يُوَلُّوه الخلافة فيَكُفّ أيديَهم عن الخيانة والفساد ، وَوَلَّوْا المقتدرَ صبيا خاضعا لأمرِ نساء القصر ، فاضطربت أمور الدولة ، وثارت الفتن ، فألّف محمد بن داود بن الجراح حزبا من العلماء والفضلاء وخلعوا المقتدر ، وَوَلَّوْا ابن المعتزّ الخلافة . وبعد يوم وليلة ثار غلمان قصر المقتدر ومشايعوه وصدقوا حملتهم على أشياع ابن المعتز ، فانهزموا . وقبضوا على ابن المعتز فخنقوه ودفن في خَرِبة بإزاء داره سنة ٢٩٦ هـ .

ويمتاز شعر ابن المعتز بالرقّة والسهولة وجَوْدة استعمال المحسِّنات البديعية وحسن التشبيه والاستعارة وغلبة الأوصاف عليه ، وبخاصة وصفُ القصور والبساتين ومجالس الأنس والصيد والوحش والطير والهلال وكواكب السماء .

ومن ذلك قوله في وصف الهلال :

وانظر إليه كزورقٍ من فضّةٍ ... قد أثقلته حُمولة من عَنْبَرِ

ومن حسن ابتداءاته قوله :

أخذتْ من شبابيَ الأيامُ ... وتَوَلَّى الصِّبا عليه السلامُ

وارْعَوى باطلي فبانَ حديثُ النفس مِني ، وعفَّت الأحلامُ

وقوله فى التزل :

مَنْ لى بقلبٍ صِيغَ من صَخْرة … فى جَسَدٍ من لؤلؤٍ رَطْبِ
جَرَحْتُ خَدَّيْهِ بِلَحْظِى فما … بَرِحْتُ حتى اقْتَصَّ مِنْ قَلْبى

ولابن المعتز كثير من المؤلفات البارعة فى الشعر والأدب والأخبار والصيد والغناء .

الكتابة

لا نقصد بالكتابة التى يُراد بها مجرد التفاهم ، بل الكتابة الفنية التى يُزاد على أصل الغرض منها التأنق فيها وإخراجها فى صورة كلامية بديعة أو محكمة تحدث فى النفس ارتياحاً لها أو إعجاباً بها . وهذه قسمان :

كتابة أدبية — وتشمل الرسائل السلطانية التى كانت تصدر من ديوان الرسائل للدولة ، والرسائل الإخوانية التى كان يكتب بها بعض الأصدقاء إلى بعض فى تهنئة أو تعزية أو شفاعة الخ ، والرسائل الأدبيـة المطولة التى كان يكتبها البلغاء فى شأن من شـؤون الدولة أو شؤون الرعية : بنصيحة ، أو إرشـاد ، أو تأييد مذهب ، أو تفضـيل فريق على فريق ، أو فى بعض الـترويح عن النفس : كالقصص والمقامات والسير والأخبار والأسمار والخرافات ، وذلك كما فى رسائل الخميس التى كان يكتبها بلغاء الدولة ، وتقرأ فى خراسان لتأييد الدعوة العباسية والحث على طاعة الخليفة ، وكرسائل الأدب الصغير والكبير ورسالة الصحابة لابن المقفع ، وكرسائل الجاحظ وكتبه الأدبية الكبيرة من أمثال كتاب البخلاء والحيوان الخ .

كتابة علمية — وهى الكتابة التى تكتب بأسلوب علمى خاص بالعلم الذى يؤدى بها حافلة باصطلاحات هـذا العلم ، مُراعًى فيها الترتيبُ العقلىُّ والقيـاسُ المنطقى وتحرير العبارة من الحشو والفضول ووضعها بطريقة تناسب : إما المبتدئين وإما المتمرنين . وهى المسماة بالكتابة التأليفية أو كتابة التصنيف والتدوين .

ومَهمّ مؤرخ الأدب البحثُ فى خصائص الكتابة الأدبية الفنية لا العلمية ، لأن الأدبيـة هى مظهر من مظاهر الجمـال ومتعة من متع النفس ، وإنما تذكر

فى تاريخ الأدب الكتابة العلمية ونشأة العلوم باعتبارها مصدر الثقافة العامّة التى تتمثل فيها حياة الأمة العقلية ، فيكون الأدب مرآة لهذه الحياة ولسانا معبرا عن مبلغ تأثير هذه الحياة فى نفوس الخاصّة والأدباء من الأمة .

وإليك وصفا مجملا لأحوال الكتابة الأدبية فى العصر العباسىّ الأول نُتْبِعُه بوصفٍ مجملٍ أيضا للكتابة العلمية ونشأة العلوم فى هذا العصر :

الكتابة الفنية الأدبية أو كتابة الترسل — كانت الكتابة الفنية الأدبية فى أواخر الدولة الأموية قد أوشكت أن تصير فى دواوين الدولة صناعة عتيدة وعند الأدباء رغيبة محبوبة ، بما أدخله عليها سالم وعبد الحميد وحَلْبَتُهُما التى أدرك كثير منها الدولة العباسية : من وسائل التنسيق والتنميق التى هيأتها أن تصير فى صدر الدولة العباسية صناعة من أشرف الصناعات الأدبية ، وصار لها من ذلك الحين فحول ونوابغ نهضوا بها إلى مستوى يُوائمُ عَظَمَةَ هذه الدولة فى العلم والأدب والسياسة والحضارة ، وبذُّوا فحولَ الشعر ونوابغَه فى عُظْم الجاه والرياسة وافتراع مناصب الدولة ؛ إذ كانت الكتابة جامعة لكلتا الحسنيين : الأولى قيامها بحاجة الحضارة والشؤون الديوانية ، والثانية كونها مظهرا من مظاهر الكمال والجمال للغة العربية . وإنما يقوم الشعر بثانيتهما دون أولاهما .

ولبلوغ الكتابة هذه المنزلة من القوة فى هذا العصر أسباب :

(١) منها إقبال كثير من العرب والمستعربين على استظهار القرآن والاستعانة بحل نظم آياته فى تدبيج كلامهم ، والاقتباس منه ، والاهتداء بمعانيه وأسلوبه وأمثاله وتشبيهاته .

(٢) ومنها استظهارُهم كثيراً من الحديث النبوىّ وخُطَب النبىّ والخلفاء الراشدين وولاتهم وقواد جيوشهم الفاتحين ورسلهم إلى ملوك العَدُوّ أو ولاته أو قواد جيوشه ، وخُطَب خلفاء بنى أمية وولاتهم من أمثال زياد والحجاج والمهلب وأولاده

ومسلم بن قتيبة وخالد القسرى، وخطباء الأمصار والقبائل والخوارج من مثل سحبان وابن القِرِّيَّة وعمرو بن الأهتم وخالد بن صفوان وعقال بن شَبَّة وقَطَرِىّ بن الفجاءة وأبى حمزة الخارجى الإباضى وأضرابهم من فحول الخطباء والبلغاء مما مُلِئَتْ به كتب الفتوح والمغازى والسير والتاريخ، ويُصَدِّق ذلك أنه قيل مرة لعبد الحميد: ما الذى مكنك من البلاغة ؟ قال : " حفظ كلام الأصلع " يريد به أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

(٣) ومنها استظهار كتب النبى وخلفاء بنى أمية وولاتهم فى معاهداتهم ومشارطاتهم وعهود توليتهم الولاة وأمراء الجيوش الجامعة لكثير من الوصايا البليغة والأحكام السياسية والشرعية .

(٤) ومنها رُقِىُّ الثقافة العامّة عند العرب والمستعربين بمدارستهم آداب الإسلام الممثلة فى القرءان والسنة والخُطَب والكُتُب الآنفة الذكر ، وبمدارستهم الثقافات الأدبية والعلمية المنقولة عن الأمم العريقة فى الحضارة والمدنية ووضع العلوم والنظم السياسية والإدارية كالفرس والهنود والروم وقدماء اليونان والكلدان، حتى تكونت فى نفوس الأمة ثقافة ممتزجة مؤلفة من حضارات أمم شتى سُمِّيَتْ بعد بالثقافة الإسلامية ، إذ كانت لا تُمَثِّل أُمَّةً دون أخرى ، وكانت مُتَمَلِّئَةً بالروح الإسلامىّ فى كل مظاهرها .

وقد تجلَّت صورتها فى الكتب البليغة التى صدرت عن خلفاء الدولة ووزرائها ورؤساء دواوين رسائلها وعن كبار الأدباء والمؤرخين فى هذا العصر .

ويمكننا أن نعرف مبلغ هذه الكتابة من القوة بمعرفة بعض موضوعاتها المتنوعة وما تميزت به من محاسن الصناعات الكلامية :

موضوعاتها — خاضت الكتابة الفنية الأدبية فى هذا العصر موضوعات شتى منها :

(١) الأعمال الديوانية من مثل كُتُب البَيْعات للخلفاء وأولياء العهد وعهود الولاة والقضاء والمنشورات السياسية والدينية .

(٢) تأييد بعض المذاهب السياسية والدينية أو تأييد سياسة الدولة .

(٣) الحث على التمسك بالآداب الشريفة والأخلاق الفاضلة .

(٤) تفضيل طائفة من الناس على طائفة .

(٥) القصص والسمر والحكاية على ألسنة الحيوان ونحو ذلك مما كتب فيه رسائل بليغة مطولة أو كتب حافلة .

(٦) التوصية والنصيحة من أستاذ صناعة لأربابها ، أو أصحاب نِحْلة لمنتحلها ، أو من أب لابنه ، كما فى رسالتى سهل بن هرون والكندى فى البخل ووصية طاهر بن الحسين لعبد الله ابنه .

ومن مميزات هذه الكتابة فى اللفظ والأسلوب والمعانى :

(١) اختراع المقدمات فى أوائل الرسائل المطوّلة وبعض العهود والمنشورات مما لا يزال أثره باقيا إلى الآن .

(٢) تنوع عبارات البدء للرسائل ، فمن تحميدات متعددة لله تعالى فى الرسائل السلطانية المطوّلة ، ومن محاكاة لكتب النبى صلى الله عليه وسلم فى الرسائل الصغيرة من مثل : "من عبد الله فلان أمير المؤمنين إلى فلان ومن قبله من المسلمين سلام عليك أما بعد فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأن الأمر كذا وكذا" .

وزاد الرشيد بعد الحمد الصلاة على النبى ، وزاد الأمين تكنية الخليفة . ومن الابتداء (بأما بعد) فقط أو مع الدعاء للمكتوب إليه أو بلفظ (كتابى إليك) وغير ذلك .

(٣) سهولة العبارة وانتقاء ألفاظها وجودة رصفها .

(٤) الغلو فى طرق الإيجاز والإطناب على حسب مقتضى المقامات .

(٥) دقة المعانى واستخدام العلم والفلسفة والمنطق فى استخراج البرهانات والنتائج والأحكام فى سبيل الإقناع .

وجملة القول أن الكتابة الأدبية بلغت فى هذا العصر غاية لم تُسْعدها المقادير بعدُ أن تتعداها . نسأل الله لها كَرَّةً تُعيدُ بها مجدها وتبلغ غايتها .

(راجع أمثلة كل أنواع الكتابة فى المنتخب بجزأيه)

وإليك تعريفات ببعض أشهر كتاب هذا العصر فمنهم :

عمرو بن مسعدة

هو أبو الفضل عَمْرو بن مَسْعَدَة بن سعيد بن صُول أبلغ كُتّاب الإيجاز .

وهو ابن عمِّ إبراهيم بن العباس الصُّولِيّ الآتى ذكره بعد . وجَدُّهما صُولُ تركىّ مِن أشراف جُرجان أسلم على يدِ يزيد بن المهلب بن أبي صُفْرة فى أثناء فتوحه بخراسان ، وخدم أحفاده فى دواوين الدولةِ العباسية ، فكان عَمْرُو هذا كاتب التوقيعات بين يدى الوزير جعفرٍ البرمكىّ وزيرِ الرشيد ، وظهرت له نجابته وهو صغير ، قال عن نفسه : كنت أُوَقِّعُ بين يَدَىْ جعفر ، فَرَفع إليه غلمانُهُ وَرَقَةً يسترِيدونه فى رواتبهم فرمَى بها إلىّ وقال : "أجب عنها" . فكتبت "قليل دائم خيرٌ مِن كثيرٍ منقطع" فضرب بيده على ظهرى وقال : "أىُّ وزيرٍ فى جِلدك !"

وصَدَّقَت الأيامُ فيه ظَنَّ جعفر فصار بعدُ أَحَدَ وُزراء المأمون الثقات عنده ، وكان يعجبه بلاغته فى إيجازه .

وتوفى فى غزوة من الغزوات التى غزاها المأمون ببلاد الروم ببلدة أَذَنة (هى المسماة عند سكانها الآن — أطنة) سنة ٢١٥ هـ .

ومن رسائله الموجزة ما كتب به على لسان المأمون إلى أحد عماله وصية بشخص :

" كتابى إليك كتاب واثق بمن كتب إليه ، مَعْنِىّ بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية مُوَصِّله " .

وكتب مرة وهو على رأس جيش نفدت أرزاقه رسالة إلى الخليفة المأمون يستمده بالمال وأرزاق الجند لأنهم هموا بعصيان أوامره :

" كتابى إلى أمير المؤمنين وَمَنْ قِبَلِى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت لذلك أحوالهم " فأعجب المأمون ببلاغته وإيجازه وأمر للجند قِبَلَه بعطائهم لسبعة أشهر .

إبراهيم الصولى

هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صُول أشهر كتاب العراق فى زمنه . وهو ابن عم عمرو بن مسعدة المتقدم ذكره .

واشتهر من بنى صُول بعدهما أبو بكر بن يحيى الصولىّ الشّطرنجىّ أبرع لاعبى الشّطرنج فى زمنه وأحد كبار الأدباء والمؤلفين وله كتاب الوزراء وغيره من المصنفات .

وكان إبراهيم هذا شاعرا يتكسب بالشعر فى أول أمره ويقصد الرؤساء ، وكان يتشيع لآل على بن أبى طالب .

فلما بويع المأمون بالخلافة فى خراسان ، وعهد بها من بعده إلى علىّ بن موسى الرضا العلوىّ رحل إليه إبراهيم بقصيدة يمدحه بها فأجازه ، واتصل هناك بذى الرياستين الفضل بن سهل بجعله من كتاب الدواوين فى الدولة ، وبقى فى خدمتها حتى كان زمن الواثق عاملا على الأهواز ، فاتهمه وزير الواثق محمد بن عبد الملك الزيات بخيانة وحبسه . وكان ابن الزيات صديقا له من قبل فكتب إليه كتبا وقصائد ومُقَطَّعات يستعطفه بها فلم تُجْدِ شيئا إلى أن بلغ الواثقَ أَمْرُه فكَفَّ يَدَه عنه ، و عاد إلى خدمة الدولة . وكان زمن المتوكل رئيسا لديوان الضياع والنفقات .

وكان إبراهيم كاتبا بليغا لا يستملى معانيه البديعة إلا من فكره وقريحته ، وقلما اقتبس معنى بديعا من غيره . وكان له قدرة على أن يكتب فى كل الأغراض وفى الإيجاز والإطناب والتوسط .

ومن رسائله الموجزة كتابُ وصاةٍ بإنسان وهو :

" فلان ممن يزكُو شُكْرُه ، ويحسنُ ذِكْرُه ، ويُعْنَى بأمرِه ، والصنيعة عنده واقعة موقعها ، وسالكة طريقها .

وأفضل ما يأتيه ذو الدين والحجا إصابةُ شكرٍ لم يضِعْ معَهُ أجْرُ "

ولما قرأ إبراهيم على المتوكل رسالته إلى أهل حمص الخارجين عليه والداعين إلى العصبية وهى :

"أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حقّ الله عليه فيما قوّم به من أَوَدٍ ، وعدّل به مِن زَيْغٍ ، ولَمَّ به من منتشر ، استعمالَ ثلاثٍ يُقدِّمُ بعضهن على بعض : أولاهن مايتقدم به من تنبيهٍ وتوقيف ، ثم ما يَسْتَظْهِرُ به فى تحذيرٍ وتخويف ، ثم التى لايَقَعُ بِحَسْمِ الداءِ غيرُها :

أناةٌ فإن لم تُغْنِ عقَّبَ بَعْدَها وَعِيدًا فإنْ لم يُغْنِ أَغْنَتْ عزائمُهُ"

عَجِبَ المتوكل من حُسْن ذلك ، فأَوْمأَ إلى عُبَيْدِ الله بن يحيى بن خاقان : "أما تسمعُ ؟" فقال : "يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلةٌ خبأها الله لك ، وذخيرة ذخَرها على دولتك" .

ولإبراهيم ديوانُ شعرٍ لطيف أكثره مُقَطَّعات .

التأليف والمؤلفون

التأليف فى العلوم الدينية :

قد عرفت فيما تقدم أنه لم يُدَوَّن فى عصر بنى أمية من العلوم على وجه الصحة واليقين إلا النحو فى رسائل صغيرة ، وإلا الحديث فى الكتاب الذى أذن عمر بن عبد العزيز لبعض مُحدِّثى زمانه فى جمعه ، وإلا ترجمة كُنّاش أهرون فى الطب . وما يُنسب إلى الصحابة والتابعين من الكتب فى التفسير وعلوم القرءان فليس إلا مجموع رواياتٍ منقولةٍ عنهم صحيحة أو ضعيفة ، جمعها ودوّنها بعضُ علماءِ الدولة العباسية ، وسمّوا كتبها باسم الصحابى أو التابعى الذى رُوِيتْ عنه هذه الروايات كتفسير ابن عباس المطبوع بمصر المروى عنه من طُرُقٍ ضعيفة . وليس معنى ذلك أنه لم يكن فى عصر بنى أمية علماء وأئمة فى الدين فى مكنتهم تأليفُ الكتب الجامعة ، ولكنهم كانوا يحجمون عن التأليف لأنه لم يؤثر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه أمرٌ صريحٌ صحيحٌ بتدوين كتبٍ فى الدين غير القرءان ، فكانوا يرَوْنَ التأليفَ بدعةً فى الإسلام ، فاكتفوا بالرواية والحفظ فى الصدور تحرّجًا وتأثّمًا من أن ينشروا شيئا لا يعلمون عِلْمَ اليقين مَبْلَغَ صحته .

الفقه — وجاءت الدولة العباسية وقد فَنِىَ كُلُّ الصحابة وجمهور التابعين ، وفيهم حَمَلَةُ الدين ورُوَاتُه ، فمات معهم علمهم ورواياتهم . وخَلَفَ مِن بَعْدِهم خَلَفٌ مُؤَلِّفٌ من علماء أخلصوا دينهم لله ، ومنافقين استغلوا تسامُحَ العباسيين مع الأمم الأعجمية ؛ فأخذوا يكيدون للإسلام سرا وجهرا بوضع كثيرٍ من الأحاديث المكذوبة فى التفسير وأصول الدين ، فخشِىَ أئمةُ الأمّة وعلى رأسهم الخليفةُ أبو جعفر المنصور أن يغلب كذبُ المنافقين على صِدْقِ

المنصور ، فحجّ المنصور سنة ١٤٣ هـ وكلّف الإمام مالكَ بن أنس إمامَ أهل المدينة بجمع كتاب جامع للأحاديث التي صحت عنده في الفقه وأصول الدين ، فألف كتابه الموطأ ، فكان ثاني كتابٍ أُلّفَ في الحديث الصحيح والفقه بعد الكتاب الذي أمر عمر بن عبد العزيز بنشره . ولكن الموطأ شاع وذاع ورضيتْهُ الأمّة ، فكان أساسا لكتب الفقه التي أُلّفَتْ بعده . وبقيَ إلى وقتنا هذا . وطُبِع مرارا . فهو أقدم كتابٍ في الدين معروفٍ للسلمين .

ومالك هذا هو إمام دار الهجرة . مالك بن أنس الحميري الأصبحي . وُلِد سنة ٩٥ هـ بالمدينة ونشأ بها وأدرك خيار التابعين فأخذ عنهم حتى صار حجة من حجج الله في أرضه ، وانتشر مذهبه في بقاع الأرض وخاصّةً المغربَ والأندلسَ وصعيدَ مصر وتُوفي سنة ١٧٩ هـ بالمدينة .

واشتهر قبله بقليل من أئمة الفقه الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، ولم يؤثر عنه على الصحيح كتاب في الفقه ، وإنما روَى عنه مَذْهَبه أصحابُهُ ، وأخصهم أبو يوسف يعقوب الشيباني قاضي القضاة ببغداد وأول من لُقّبَ بهذا اللقب ، ومحمد بن الحسن ، وقد ألّفا بعده . ويروى عن محمد كتاب المبسوط أصل كُتُب الحنفية ، وانتشر مذهب أبي حنيفة في العراق وفارس وخراسان وبلاد الترك والهند والصين وبعض بلاد الشام ومصر وتوفي سنة ١٥٠ هـ .

ومن تلاميذ مالك في الفقه عالم قريش أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي وُلد بمدينة غَزّة من أرض فلسطين سنة ١٥٠ هـ ورحل إلى مكة صغيرا ، ونشأ بها ، وأقبل على تعلم العربية والشعر والأدب ، ثم انصرف إلى الفقه فرحل إلى مالك بالمدينة ودرس عليه كتابه الموطأ ، ثم رحل إلى اليمن وتولى بعض أعمال الدولة ، فاتُّهِم بموالاته للعلويين ، فحُمِلَ إلى العراق زمن الرشيد فشُفِعَ فيه . ونقل كثيرا من علم أهل العراق وطريقتهم في القياس ، وكَوّن مذهبه في الفقه ،

ودخل الشام ومصر وبها مات سنة ٢٠٤ هـ وانتشر مذهبه في بعض مدن العراق والشام والحجاز واليمن وجزائر المحيط الهندى ومصر وغيرها .

وأخذ عنه أحمد بن حنبل الشيبانى من أكبر أئمة الحديث ببغداد . وولد بها سنة ١٦٤ هـ وطلب الحديث فى أكثر البلاد الإسلامية حتى جمع فى كتابه المسند الذى يعتبر أصلا من أصول الإسلام أكثر من أربعين ألف حديث . ثم كون له مذهبا فى الفقه استمده من فقه الشافعى وغيره ومن نصوص الحديث وشابه شىء قليل من الرأى والقياس . وكان عامة أصحابه هم جمهور المحدثين والمقتفين أثر السلف والمناهضين لأهل البدع والإلحاد والمتفلسفة ببغداد ، ودخل فى مذهبهم عامة أهل بغداد فتشددوا على المُجّان والفُسّاق وآذوهم إيذاءً كبيرا ، وتنطّع كثيرٌ من عامتهم فى ذلك ، حتى ضُرِب المَثَلُ بالحنابلة فى التشدد فى الدين .

وتوفى أحمد سنة ٢٤١ هـ ببغداد وانتشر مذهبه ببغداد والعراق والبصرة ونجد .

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم الذين دخل فى مذهبهم أكثر أهل الأرض من المسلمين . وثمة مذاهب أخرى لبعض الأئمة المجتهدين من أهل السنة والشيعة والخوارج يتبعها كثير من المسلمين فى بقاع الأرض .

ولم يَنِ المسلمون يظهرِم عنايتهم بالفقه والحديث، ولم تقلَّ العنايةُ بهما فى أى عصر حتى عصرنا هذا الذى كادت تنقرض فيه روايةُ الحديث من بعض الأمصار .

الحديث — واقتدى بالأئمة الذين كفَّهم للتصور التأليف فى علوم الدين غيرُهم من أهل الحديث ، فألفوا فيه عدة كتب ميزوا فيها الصحيح من المصنوع . وأشهرهم إمامُ المحدِّثين اسحقُ بن راهَوَيْه أوَّلُ من جرّد كُتُبَ الحديث من مسائل الفقه والتفسير وكانت قبل ممتزجة وتوفى سنة ٢٣٨ هـ .

واشتهر بعده تلميذه شيخ الحديث وإمام السنة محمد بن إسماعيل البخارى فوضع بإشارة منه كتابه الجامع جمع فيه الأحاديث الصحاح فقط، وكانت الأحاديث قبل تجمع مختلطا صحيحها بضعيفها مُنبّهاً على مرتبة كل منها . وهو من أصل فارسى وُلِدَ ببخارى سنة ١٩٤ هـ ونشأ بها يتيما لحفظ القرآن وشدا العربية وهو صبى وحُبِّبَ إليه سماعُ الحديث وهو فى المكتب . وكان نادرةً فى الحفظ والنقد ، فطلب الحديث من آفاق الأرض ، وحجّ وزار المدينة وصنف كتابه فى تاريخ رجال الحديث بها . ثم لما نضج علمه ألف كتابه الجامع جمع فيه تسعة آلاف حديث مُكرَّر بعضُها بتكرُّرِ وُجوهها ، فأجمع علماءُ السنة أنه لم يكن فيها أصح منه . ثم رجع إلى بلاده فمات بقرية يقال لها (خَرْتَنْك) على ثلاثة فراسخ من سمرقند سنة ٢٥٦ هـ .

ومن تلاميذه الإمام مسلم بن الحجاج النّيسابورى أحد الشيخين وصاحب ثانى الصحيحين ، ولد سنة ٢٠٦ هـ وأخذ عن البخارى وغيره من علماء الآفاق وجمع صحيحه المشهور الذى يعتبر ثانى كتب السنة فى الصحة . وتوفى بنيسابور سنة ٢٦١ هـ .

واشتهر بعد الشيخين البخارى ومسلم أربعة من الأئمة ألفوا كتبا فى الحديث تلى الصحيحين فى الصحة والاشتهار وهم :

الإمام الترمذىّ صاحب الجامع فى الحديث .

والإمام أبو داود صاحب السنن المنسوبة إليه .

والإمام النسائى صاحب السنن المنسوبة إليه .

والإمام ابن ماجه صاحب السنن . وكلهم من أهل القرن الثالث .

وهذه الكتب الستة هى التى اشتهرت فى الملة والإسلام بالصحة ويأتى بعدها الموطأ ومسند أحمد على خلاف فى ذلك .

وجاء بعد هؤلاء من لا يحصى عددهم من المحدّثين . ولكثير منهم عشرات المؤلفات .

التفسير — أما التفسير وعلوم القرآن فَرُوِيَتْ أقوالٌ فيه ورسائل منه كثيرةٌ آخر عصر بنى أمية ، ثم ألّف علماءُ الدولة العباسية فى غريب القرءان ومتشابهه وقراءاته ورسمه وإعجازه كتبا مختلفة القيمة والحجم ، حتى جاء فحل المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ فى أواخر القرن الثالث فجمع كل ما صحت روايته عن رسول الله وأصحابه والتابعين فى تفسيره الكبير ، فكان أول كتاب عظيم صحيح وُضع فى التفسير بالأثر على مذهب السلف ، وتابعه فى خطته الثعلبى والواحدى ، ومنهم استمد كل ذى تفسير أثرىّ بعدهم .

علم الكلام — ومن علوم الملة الإسلامية علم الكلام ، وهو يبحث عن إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية والنقلية من نحو إثبات وجود الخالق وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والثواب بدخول الجنة والعقاب بدخول النار والإيمان بكل ما جاء به القرآن .

وكان الصحابة والتابعون لايخوضون بعقولهم فى هذه العقائد إلى أن فتحت بلاد الأمم التى لم تكن تدين بالإسلام ؛ فأسلم كثير منهم رياء ونفاقا ؛ فخاضوا فى العقائد ، وابتدعوا كثيرا من الضلالات والشبه ، ولم يجرءوا على إظهار خبائثهم إلا فى أواخر دولة بنى أمية عند ضعفها ، وفى أوائل الدولة العباسية لتسامحها مع الأعاجم . ولما استفحل أمرهم فى آخر حياة أبى جعفر المنصور أوصى ابنه المهدى ألا تأخذه هوادة فى تتبع أهل الزندقة والإلحاد وقتلهم بعد مناظرتهم ، إن ثبت عليهم كفر وكيد للإسلام ، فكان المهدى بعده يجمعهم مع علماء الدين للمناظرة ، فكانوا لا يقبلون منهم الأدلة النقلية عن القرآن والسنة فاضطروا إلى مناظرتهم بالأدلة العقلية ، واستخدموا المنطق آلة فى الجدل ، وسُمّى علم إثبات العقائد بكلام الناس لا بكلام الله ورسوله (علم الكلام) .

وكان المتكلمون يذهبون الى عدة مذاهب ، منهم الصفاتية الذين يثبتون لله صفات غير ذاته الكريمة ، والمعتزلة الذين ينفون هذه الصفات باعتبارها غير صفات البارى ويقولون إنه وصفاته حقيقة واحدة ، وكان هذا هو مذهب الدولة زمنا ، وأولهم واصل بن عطاء أول من اعتزل حلقة الحسن البصرى مخالفا له فى بعض تقريراته ، ومنهم النّظام والجاحظ وأحمد بن أبى دُواد .

وكان بجانب هذين المذهبين مذاهب كثيرة لأصحاب الحديث والشيعة ، إلى أن ظهر إمام المتكلمين أبو الحسن على الأشعرى من سلالة أبى موسى الأشعرى ، ووضع مذهبا توسط فيه بين مذهب الصفاتية والمعتزلة وسماه مذهب أهل السنة ، فنسخ هذا المذهب أكثر المذاهب فى الاعتقاد ، وعليه الآن جمهرة المسلمين فى أنحاء الأرض .

وقد ولد أبو الحسن بالبصرة سنة ٢٧٠ هـ وبها نشأ وتعلم ونشر مذهبه على منبر مسجدها الجامع وتوفى سنة ٣٢٤ هـ .

التأليف فى العلوم اللسانية والنحو — جاءت الدولة العباسية ، وقد اشتغل بالنحو من البصريين طبقتان : طبقة أبى الأسود الدؤلى ومعاصريه ، والطبقة الثانية ممن أخذوا عنهم . ومن أشهرهم عيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء ، وقد أدرك هذا عصر الدولة العباسية ، وألف عيسى كتابين مطولين فى النحو هما كتاب الجامع والإكمال ، واشتغل أبو عمرو بكل علوم اللغة من نحو ولغة وأدب وإقراء للقرآن على رواية خاصة به ، وعليه تخرج الخليل بن أحمد مخترع علم العروض وعمل المعجمات اللغوية ، وسيد أهل الأدب على الإطلاق وشيخ سيبويه ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، وأبى زيد الأنصارى .

ولد الخليل سنة ١٠٠ بالبصرة ، وأخذ عن أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، وكان غاية فى تصحيح القياس النحوى وتفريع مسائله ، ولقّن سيبويه تلميذه علم

ما صَنَّف مِن كتابه العظيم أصل كل كتاب فى النحو . وبقى الخليل بالبصرة طول حياته متزهداً متعففاً حتى مات سنة ١٧٤ هـ .

وأما سيبويه فهو فارسيُّ الأصل لزِم الخليل أكثر أوقاته وجمع من علمه أعظم مُصَنَّف فى النحو سُمِّىَ (بالكتاب) وأكثر ما فيه معقود بلفظ الخليل . ولما مات الخليل تَصَدَّرَ للتدريس فكان إمام البصريين ، وذهب إلى بغداد وافدا على البرامكة ، فأخفق فى رحلته ، فرجع إلى بلدهِ البيضاء بفارس ومات سنة ١٨٠ هـ وسنه نيّف وأربعون سنة وروَى عنه تلميذه الأخفش كتابه وشرحه ، وبه انتشر فى الدنيا .

وأما الأصمعى فلم يقتصر على النحو وكان أكثر اشتغاله بالأدب والأخبار والملح والطرائف ؛ فأصبح بها مؤدبا ومسامرا فى دارِ الخلافة زمن الرشيد وحاز ثروة عريضة ، ومات عن سِنّ عالية سنة ٢١٦ هـ وله من العمر ١٠٧ سنة .

وتلت طبقة سيبويه والأصمعى عدة طبقاتٍ من النحاة البصريين .

أما النحاة الكوفيون فأول طبقةٍ منهم طبقة معاذ الهرَّاء واضع علم الصرف . وتقابِل الطبقة الثانية مِن البصريين ، ومن أشهر أئمتهم الكسائى مؤدب الأمين فى النحو وتلميذه الفراء . وطبقاتهم متعددة كالبصريين . وبين نحاة البصريين ونحاة الكوفيين فروق فى وجوه القياس النحوى ، أهمها : أن البصريين يقدمون السماع على القياس ، ولا يروون إلا عن فصحاء الأعراب الذين يثقون بفصاحتهم

ولما زخرت بحور العلم ببغداد سكنها كثير من نحاة البصرة والكوفة واشتركوا فى تأديب أولاد الخلفاء والوزراء والقواد ودارت بين الفريقين مناظرات ومناقضات فى مجالسهم وفى المساجد فتولد من المذهبين مذهب ثالث فى النحو سمى مذهب البغداديين .

اللغة — ولم يكن لمريد تعلم اللغة العربية الفصيحة من المولّدين والأعاجم طريقٌ لمعرفة ألفاظها إلا حفظ القرءان والحديث وشعر العرب ومشافهة الأعراب؛ فوضع بعض العلماء فى كل منها كتبا تفسر غريبها ، ثم خطرت لعلماء اللغة فكرةٌ أخرى لضبط مفردات اللغة بشكل مُفَصَّلٍ مُبَوَّب ، فوضعوا فى كل موضوع من الموضوعات التى تناولها الشعراء والكتاب رسائل تجمع الألفاظ الخاصّة بها وسَمَّوْها باسم موضوعها ؛ فقالوا كتاب خَلْقِ الإنسان — كتاب الخيل — كتاب الإبل — كتاب البخل والكرم — كتاب السَّرْج واللجام . الى أن ظهر ببغداد كتابٌ نُسِبَ إلى الخليل بن أحمد بعد موته بنحو أربعين سنة بشكل معجم رتبت الكلمات فيه على حسب مخارج الحروف من الفم فيبتدئ بحروف الحلق ويختم بحروف الشفتين ، وبدئ فيه بحرف العين ، فسمى كتابَ العين . إلا أن ما وقع فيه من الخلط والخطأ الصرفى جعل كثيرا من العلماء ينكرون نسبته إلى الخليل . والظاهر أن الخليل وضعه لأحد تلاميذه فى آخر حياته ، ولم يتمه ، فسافر به إلى خراسان وأتمه من عنده ثم نُقِلَ بعد حينٍ إلى بغداد . ولكنه على أى حال وَلَّدَ فى العلماء فكرة عمل المعجمات المرتبة بترتيب الحروف فألف ابن دُرَيْد فى أواخر هذا العصر كتاب جمهرة اللغة ورتبه على ترتيب حروف المعجم ، فابتدأ بالألف ثم الباء ثم التاء إلخ . وأدرك عصره الأزهرى فألف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل ، ثم وُضِع بعد ذلك فى العصر الثانى الصحاح للجوهرى والمحكم لابن سيده من العلماء الأندلسيين وهذه هى أصول معجمات اللغة وما سواها جمع لها أو اختصار منها .

العروض والقافية — وللخليل جزيل الفضل على العرب والعربية بضبطه أوزان الشعر العربى لحفظه بذلك من الاختلال والضياع . وقد اخترع هذا العلم اختراعا جملة واحدة ، وحصر فيه أوزان الشعر فى خمسة عشر بحرا ، وزاد عليه الأخفش بحرا واحدا .

أما القافية فقد سبقه بعض العلماء بالتكلم فيها إلا أنه هو أول من فصّل الكلام فيها .

فن الأدب — هو مدارسة الكلام العربي من قرءان وحديث وشعر ونثر لتهذيب النفس بما فيه وإشعارها بجمال اللغة . وكانت كتبه فى أول هذا العصر تبحث فى بعض الأغراض الخاصة كرسائل ابن المقفع وكتاب كليلة ودمنة وكتاب الشعر والشعراء لأبى عبيدة وكتاب الأراجيز للأصمعى ، وأول كتاب جامع لفنون كثيرة منه هو كتاب البيان والتبيين للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ﻫ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب المنظوم والمنثور لتلميذه أحمد بن طيفور فى أربعة عشر مجلدا ، ثم كتاب الكامل والروضة للمبرد ، ثم تتالت كتب الأدب كبيرة وصغيرة .

التأليف فى فنى التاريخ والجغرافية — أخذ العلماء منذ صدر الدولة العباسية يبحثون فى التاريخ من نواح شتى لارتباطه برواية السنة وجباية الخراج وسياسة الملك كفن السير والمغازى . وأول من ألف فيها محمد بن إسحق . وفن فتوح البلدان ، وأشهر من ألف فيه الواقدى والمدائنى وأبو مخنف . وفن طبقات الرجال ، وأشهر علمائه القدماء ابن سعد كاتب الواقدى والبخارى . وفن النسب ، وأشهر علمائه الكلبى وابنه . وفن أخبار العرب وأيامها ، وأشهر علمائه أبو عبيدة والأصمعى . وفن قصص الأنبياء ، وكتب فيه كثيرون . وفن التاريخ العام السياسى الخاص بأعمال الدول ، ومن أقدم كتبه المطبوعة تاريخ ابن واضح اليعقوبى ، ومن أكبرها تاريخ محمد بن جرير الطبرى رتب حوادثه على السنين الهجرية .

أما الجغرافية المفسرة بلفظ (وصف الأرض) فإن العرب فى الجاهلية كانوا يعرفون من وصف بلادهم ومواطنهم ما لا تعرفه أى أمة من وصف بلادها ، يعرف ذلك من اطلع على وصفهم المنازل والقفار فى شعرهم . ولما جاء الإسلام وامتدت فتوحهم من حدود الصين والهند إلى المحيط الأطلنتى وترددت جيوشهم وقوافلهم

فى هذا الملك العريض تعرفوا طرقه ومسالكه وأنشئوا طرقا جديدة أصيلة ، وكانوا يسمون هذا الفن بعلم المسالك والممالك ، وهو الجغرافية الوصفية التخطيطية . ولكن الجغرافية الرياضية الباحثة فى شكل الأرض وعلاقتها بغيرها من الكواكب، فقد نقلوه فى صدر الدولة أولا عن الهنود فى كتاب السندهند الذى نقله عن الهندية محمد بن إبراهيم الفزارى زمن المنصور، وثانيا عن اليونان القدماء فى عدة كتب أخصها كتاب المجسطى لبطليموس الذى نقله الحجاج بن مطر للمأمون ، وصحح العرب كثيرا من أغلاطه زمن المأمون وبعده . وحققوا من ذلك الحين كُرَوِيَّةَ الأرض ومحيطها ودرجاتها ومقدار الدرجة الأرضية .

ونبغ فى الجغرافية بعد عصر المأمون أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن خُرداذبة ، وكان واليا على البريد والخبر بنواحى جبال طبرستان ، ثم نادم الخليفة المعتمد ، واختص به ، وله فى الجغرافية كتاب المسالك والممالك ، وهو مشهور .

وغبَرَ العلماء بقية هذا العصر الأول يحققون ويصححون هذا الكتاب ، ثم تبحروا فى الجغرافية الرياضية فى العصر العباسى الثانى ؛ ولكن معارفهم كانت قد اتسعت كثيرا فى الجغرافية التخطيطية فى العصر الأول .

لمحة فى الترجمة والمترجمين — لم يصح عن العرب زمن الدولة الأموية أنهم ترجموا من كتب الأوائل إلا كناش أهرون فى الطب ترجمها ماسَرْجَوَيْه طبيب مروان بن الحكم ، وأذاعها عمر بن عبد العزيز فى الناس . ولكن العرب والمستعربين والمسلمين كافة أصبحوا فى زمن الدولة العباسية بحاجة إلى الانتفاع بحضارات الأمم الغابرة وصناعاتهم ؛ فرغب الخلفاء العباسيون الأولون فى ترجمة السياسة والطب والرياضيات والفلك والتنجيم . فترجم ابن المقفع للمنصور كثيرا من كتب الفرس فى السياسة وتدبير الملك والآداب وسير الملوك وترجم كتبا يونانية كانت نُقلت زمن كسرى أنو شروان إلى الفارسية فى المنطق والفلسفة . واستقدم المنصور بختيشوعَ الكبير رئيس أطباء جند يسابور وابنه وتَوْبَخْت وابنه أباسهل ،

والبطريق فترجموا له كثيرا من كتب الطب والحكمة والفلك والسياسة ، ثم فترت الترجمة بعد المنصور إلى أن أحياها البرامكة والرشيد، فحثوا العلماء على ترجمة كتب كثيرة ، وصححوا بعض ما تُرجِم زمنَ المنصور .

ثم نهضت الترجمة فى عصر المأمون نهضة أتت على أكثر ماعُثِر عليه من كتب اليونان، ومابقى من كُتُب النبط ، وما وصل إليهم من كتُب الهند والفرس ، وأكملوا تصحيح ما تُرجِمَ من قبل ، وبعث المأمون إلى القسطنطينية بعثا يحذقون اليونانية ويختارون ما يرونه صالحا للنقل إلى العربية، وكان منهم الحجاجُ بن مَطَر وسَلْمُ صاحبُ بيت الحكمة ، وابن البطريق ، وحُنَيْنُ بن اسحق . فاختاروا كتبا كثيرة حملوها إلى بغداد وترجموها ، وتعلّمها الناسُ منهم . ونشأت طائفة من الأطباء والفلكيين والرياضيين استقلوا ببحوثهم ، فوصلوا إلى مرتبة النبوغ فى هـذه العلوم ، ومنهم بنو موسى بن شاكر محمد واحمد والحسن أشهر رياضيّى هذا العصر ، وأوّلُ مَنْ ألَّفَ فى علم الحيل والآلات من المسلمين (الميكانيكا) . ومحمد بن موسى الخوارزمى واضع علم الجبر ومذيع الحساب الهندى وأرقامه بين العرب . وفيلسوفُ العرب والإسلام أبو يوسف يعقوب الكندىّ وتلميذه أحمد بن الطيب السَّرْخَسِيّ وغيرهم . ولم ينته هذا العصرُ حتى أصبحت هـذه العلوم ملكة راسخة فى أهل الملة الإسلامية ، وامتزجت بحياتهم وأدبهم وبحثهم ، ونبغ فيهم الطبيب الكيميائى الأكبر أبو بكر محمد بن زكريا الرازى المتوفى سـنة ٣١١ هـ والمعلم الثانى أبو نصر الفارابى وأدرك العصر العباسى الثانى ، وعاش فيه دهرا ، وسيذكر بعدُ .

ومن أشهر المترجمين بعد عصر المأمون أبو بشر متا بن يونس وثابت بن قُرّة الصابىء وأبو عثمان الدمشقى .

ومن أشهر الكتب التى ترجمت أو وضعت فى الفلك كتاب السند هند (أى الدهر الداهر) ترجمه من الهندية كما تقدم محمد بن ابراهيم الفزارى العربى الصميم ، وبقى هذا الكتاب معمولا به إلى زمن المأمون .

القسم الثاني

العصر العباسي الثاني

العصر العباسي الثاني

أولا – عصر النفوذ التركي :

التحول من الفرس الى الترك : في العصر العباسي الأول ، كان العباسيون قد استعانوا بالموالي فرسا وعربا للتخلص من النظام الاموي حتى استولوا على السلطة واستبدوا بها ،واستذلوا الشعب بالضرائب الفادحة ،وقلدوا الفرس المناصب العليا وجعلوا منهم الوزراء والقادة ، ثم نكبوهم بالنكبات الجسام كنكبة البرامكة ونكبة بنى سهل ،حتى قام عداء شديد بين الفرس وبين العرب يريد العرب فيه أن يستعيدوا مجدهم التليد في العهد الاموي ويريد الفرس فيه أن يزيدوا من المجد الطريف في العصر الحالي مما خلق تيارا شعوبيا لهدم العروبة ،يرافقه تيار الحادي لهدم الاسلام . وشبت الثورات في شرق البلاد وكان آخرها ثورة "بابك الخرمي" في أذربيجان التي استمرت عشرين عاما حتى أطفأ نارها المعتصم الذى أخذ يعد العدة لتحول جذري من الاستعانة بالفرس الثائرين الطامعين في احياء مجدهم القومي الناشرين للالحاد والزندقة ،ووجد الفرصة سانحة للاستعانة بالرقيق فالتركي ،فقد كان في ذلك الوقت يزداد توافده الى العراق وبغداد ،واستكثر من طلبة حتى ضاقت به بغداد مما اضطره الى أن يبني لهم مدينة "سامراء" شمالي بغداد التي ظلت حاضرة للدولة حتى أواخر عهد الخليفة

العباسى المعتمد سنة ٢٧٦ هجرية

واذا كان بعض الشر أهون من بعض فشر الفرس كان أهون من شر الاتراك لأن الفرس كانوا أصحاب مدنية وحضارة ، أثروا بهما على الحياة العربية ودفعوا الى نهضة حضارية أفادت منهم ومن الثقافات الأجنبية وأهمها اليونانية والفارسية ، أما الاتراك فكانوا بدوا لاحضارة ولاثقافة لديهم ، فلا يعرفون صناعة ولا زراعة ، ولا يبدعون فنا ولا أدبا ، ولا يجيدون سياسة ولا نظام ملك وكل ما يمكن أن يستعان بهم فيه — الحرب والضرب ، والغارة وطلب الغنائم .

وقد هيأ لهم المعتصم فرصة القبض على أزمة الحكم ، وتصريف أمور الدولة وتسخير الخلفاء بحسب ما يريدون . وقد استعان المعتصم بالترك لتولي الخلافة والتمكن فيها ، لأن خؤلته كانت فيهم ولأنه كان يخشى أن يحول الفرس بينه وبين الخلافة .

وقد ولى المعتصم كبيرهم ويدعى "أشناس" مصر، ولما خلف المعتصم ابنه الواثق أطلق يد "أشناس" من بابه في بغداد الى أخر أعمال الغرب وولى على الجانب الشرقي من بدعى منهم "إيتاخ" ولما لم يستخلف ولى عهد بعده أخذ "إيتاخ" البيعة للمتوكل الذى كان سببا فى أن تصبح ولاية الخلفاء فيما بعد بيد الترك فحين أراد أن يفتك بالترك خشية منهم عاجلوه بقتله هو ووزيره الفتح بن خاقان سنة ٢٤٧هـ ومنذ ذلك الحين آل أمر الدولة كله للترك .

خاقان

ولم يعد للخلفاء ذكر فكان الخليفة كالأسير في يدهم ان شاءوا أبقوه ، وان شاءوا خلعوه ، وان شاءوا قتلوه ، فقد ولوا المنتصر الخلافة بعد أن قتلوا أباه ، وتوفي بعد سته أشهر ، ثم اختاروا ابن المعتصم ولقبوه بالمستعين ثم خلعوه ، ثم بايعوا ولي عهد المتوكل وهو المعتز بالله ثم خلعوه ثم قتلوه ، وبايعوا محمد ابن الواثق ولقبوه بالمهتدي ، وحاول المهتدي أن يسير سيرة عمر بن عبد العزيز في إقامة العدل والتقشف فضاق به الخاصة والعامة فقتلوه ، وتقوم ثورة الزنج فلا يستطيع قادتهم التغلب عليها فيضعف شأنهم ، ويتولى الخلافة المعتمد بن المتوكل ويتاح لأخيه الموفق ان يقود المعركة ضد الزنج ويقضي عليهم قضاء مبرما ، فتعود للخلافة العباسية هيبتها ويخضع الاتراك للمعتمد وأخيه الموفق ويموت المعتمد ويخلفه ابن أخيه المعتضد سنة ٢٧٩هـ فيزيد في إخضاع الترك ثم يخلفه ابنه المكتفي سنة ٢٨٩ هـ فالذى ظلوا له خاضعين ، ألكنه أخطأ حين جعل ولاية العهد لابنه المقتدر وكان طفلا فلما توفي سنة ٢٩٥ خلفه وهو في سن الثالثة عشرة ، فلم يرتضه الشعب وأخذوا البيعة لعبد الله بن المعتز ولكن الترك لم يمهلوه اكثر من يوم وليلة وأخذوه عنوة وقتلوه ، وعادت الخلافة الى المقتدر ، وعزله الترك وولوا مكانه أخاه القاهر بالله ، وكان أحمق لا يصحو من سكر فخلعوه وسملوا عينيه سنة ٣٢٢ .

وبايعوا بعده ابن المقتدر الراضي بالله ، وكان شاعرا جوادا غير أنه لم يكن له رأى في ادارة شئون الدولة ، وظل حتى توفي سنة ٣٢٩ وخلفه أخوه المتقي بالله وكان تقيا ، غير أنه خلع عيناه وسملت عيناه ، ثم تولى بعده المستكفي بالله بن المكتفي ، ولم يمر عام حتى نزل معز الدولة البويهي بغداد وما لبث أن خلعه وسمل عينيه ، وبه انتهى العصر العباسي الثاني ، واستولى البويهيون على السلطة ، وزالت سلطة الترك وقوادهم الى غير رجعة وهكذا ساد الترك وسيطروا على سياسة البلاد في العصر العباسي الثاني ، وكانت السلطة الكبرى من الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) حين ضعفت ثقته بالعرب وقويت بالأتراك فأخرج العرب من ديوان الجيش وأنشأ جيشا كبيرا من أرقاء الترك يستعين به على العرب وعلى الفرس أنصار الدعوة العباسية الأولى ، فأصبح جنود الترك بعد حين أصحاب الأمر والنهي في الدولة على جهلهم وسفههم ، وتدخلوا في اختيار الوزراء والولاة والقضاة وأصحاب المناصب العليا ، بل استطالوا على الخلفاء يقتلونهم ويسملون أعينهم ، ويولون من يشاؤن من الصبيان والمستضعفين من أبنائهم ، حتى اختل نظام الحكم وثار الشعب ، وكثر الشغب ، وامتدت الثورات الى الأقاليم وعجز الخلفاء والمسيطرون عليهم من الأتراك عن إخمادها .

انقسام الدولة العباسية الى دول وامارات : حين رأى ولاة الاقاليم ماعليه حال الاتراك الجهلاء السفهاء من محاولات السيطرة على الحكم ، والاوامر الخرقاء التى يملونها على الخلفاء لتصدر اليهم — وجدوا أنهم أحق بأقاليمهم من الخلفاء المستضعفين والاتراك المستبدين ، فاستقل بعضهم بما ولى عليه وكان أولى بذلك . الصنيع الفرس الطامعون فى استرداد ملكهم من أيدى العرب والاتراك ، فدعوا الى أنفسهم واستقلوا عن الخلافة منشئين دولا وامارات جديدة كالدولة السامانية فى خراسان ، والبويهية فى فارس وانتهى أمرهم بالزحف بجيوش الديلم والفرس على بغداد ، وانتزاع السلطة من الاتراك وكف أيدى الخلفاء عن تدبير أمور الملك .

كذلك استبد رؤساء القبائل العربية كل بولايته فى الفرات والجزيرة وشرقى الشام ووجد العلويون المطالبون بحقهم فى الخلافة من أيام خلافة يزيد بن معاوية .. وجدوا الفرصة سانحة ، فأخذوا ينشئون دولا وامارات بطبرستان والحجاز واليمن ، وأنشأ بعضهم وهم الفاطميون خلافة عتيدة امتدت من المحيط الاطلنطى الى شمالى الشام وشرقى الحجاز .

وهكذا انقسمت الدولة العباسية الى دول وامارات بعضها مستقل استقلالا كاملا ، وبعضها مستقل استقلالا داخليا فقط ، مع اعتراف ملوكها وأمرائها بخلافة خليفة بغداد ، فيتقلدون الحكم بتقليده ، ويخطبون

على المنابر باسمه وهذه بعض الدويلات التى ظهرت نتيجـــة لاستبداد الاتراك :

١ ـ الدولة الطولونية فى مصر والشام (٢٤٥ ـ ٢٩٢هـ)
٢ ـ الدولة الصفارية بفارس (٢٥٤ ـ ٢٩٠ هـ).
٣ ـ الدولة السامانية بفارس وماوراء النهر (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ)
٤ ـ الدولة الزيارية بجرجان (٣١٦ ـ ٤٣٤ هـ)
٥ ـ الدولة الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ).
٦ ـ الدولة البويهية بفارس ثم العراق (٣٢٠ ـ ٤٤٧هـ).
٧ ـ الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ).

ماقيل فى تصوير أحوال هذا العصر:

مما قيل من شعر وشعراء هذا العصر تصويرا لذلك التـــاريخ الاسود وسوء عمل الاتراك فيه :ـ

يقول دعبل الخزاعى يهجو المعتصم الذى فتح الباب واسعـــا للترك ليخوضوا فى هذه الدولة ،فأقطعهم القطائع وركن اليهـــم وصدرهم :

لقد ضاع امر الناس حيث يسوسهم "وصيف" و"أشناس" وقد عظم الخطب (١)
واني لأرجو أن ترى من مغيبها مطالع شمس قد يغص بها الشرب (٢)
وهمك تركي عليه مهانة فأنت له أم وأنت له أب

وسجل البحتري مصرع المتوكل الفاجع برضى ابنه ، وكان قد عزم على الفتك به وبوجوههم ، لولا أنهم سبقوه وقتلوه .. يقول البحتري مبدعا

تغير حسن "الجعفري" وأنسه وقوض بادي "الجعفري" وحاضره (٣)
تحمل عنه ساكنوه فجاءة فعادت سواء دوره ومقابره
اذا نحن زرناه أجد لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به أنيس ، ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها ، والملك يشرق زاهره

(١) وصيف : هو أحد كبار الترك الذين استعان بهم المتوكل وجعله صاحبه ولما عرف الترك أنه يريد أن يفتك به وحاجبه "بغا" الكبير ، وكانت الأمور قد ساءت بينه وبين ابنه المنتصر ولي عهده ، أعدوا له نفرا من أصاغر الترك دخلوا عليه وقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان سنة ٢٤٧ هـ غير مراعين فيهما عهدا ولا ذمة ، واحلوا المنتصر ابنه عرش الخلافة مكانه وأشناس : كبير الاتراك الذي قلده ولاية المعتصم مصر ، وجعل له الحق في ان يولي عليها ولاة من قبله ، فكان يدعى له فيها على المنابر .
(٢) الشرب (بفتح الشين) القوم يشربون ويجتمعون على الشراب .
(٣) الجعفري : قصر بناه المتوكل وقصورا أخرى في مدينة بناها وسماها الجعفرية لينتقل اليها ويترك سامرا .

ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها ... وبهجتها ، والعيش غض مكاسره

فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت ... بهيبتها أبوابه ومقاصره ؟

وأين عميد الناس في كل نوبة ... تنوب ، وناهي الدهر فينا وآمره ؟

تخفى له مغتاله تحت غرة ... وأولى لمن يغتاله لو يجاهره

فما قاتلت عنه المنايا جنوده ... ولا دافعت أملاكه وذخائره

ولا نصر المعتز من كان يرتجى ... له ، وعزيز القوم من عز ناصره

حلوم أضلتها الأماني ومدة ... تناهت ، وحتف أوشكته مقادره

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي ... درى الفاتك العجلان كيف أساوره

حرام على الراح بعدك أو أرى ... دما بدم يجري على الأرض مائره

وهل أرتجي أن يطلب الدم واتر ... يد الدهر والموتور بالدم واتره

أكان ولي العهد أضمر غدرة ... فمن عجب أن ولي العهد غادره

فلا ملي الباقي تراث الذي مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ومن عجب أن البحتري الذي يأسى في هذه الأبيات أسى شديدا ، ويغضه أن لم ينتصر المعتز لأبيه المتوكل حين عز ناصره ، ويأسف أن لم يكن بيده سيفه ساعة الفتك بالمتوكل ليقتل من قتله ، ويحرم على نفسه الخمر حتى يرى دم قاتلي المتوكل جاريا على الأرض ثأراً لدمه .. البحتري هذا يعتذر عن الترك ويشفع لهم عند المعتز حين يتولى الحكم ، فيقول مخاطبا اياه :

يامن له أول الدنيا وآخرها   ومن بجود يديه يضرب المثـــل

أما الموالى

من يركب الخطر الصعب الذى ركبـــوا

بالأمس أو يبذل النصر الذى بذلوا ؟

قد جاهدوا عنك بالأموال وافـــرة

وبالنفوس ، ونار الحرب تشتعــــل

فاسلم لهم مادعت يوما مطو قـــة

وليسلموا لك ما حنت ضحى ابـــل

وما سلم المعتز ولكن الأتراك سلموا ، فما زالوا به حتى خلعوه وانتهكوا حرمة أمه ، وصادروها على أموالها ونفوها الى مكة ، فكانت تسمع وهى تدعو عليهم بصوت عالى : " اللهم أخز صالح بن وصيف كما هتك سرى وقتل ولدى ، وشتت شملى ، وأخذ مالى ، وغربنى عن بلدى ، وركب الفاحشة منى " .

والخطر الصعب الذى يذكر البحترى أنهم ركبوه ، والنصر الذى يذكر أنهم بذلوه يتمثل فيما ألحقوه المستعين من ارهاق ، ومضايقته حتى هرب الى بغداد ، وهناك وقف البغداديون مع المستعين فى حرب ضد المعتز متطلعين الى معونة خراسان ، ولابن الرومى فى هذه الحرب قصيدة يعنف فيها المعتز ، ومنها :

عجبت للمرء لايحص حقيقته مسلوبة ،كيف يحص بعدها السلبا

دع الخلافة يامعتز من كثب فليس يكسوك منها الله ما سلبا

ثم يقول :

هذى خراسان قد جاءت حلائبها

تزجى لنصر أخيها عارضا لجبا

ولكن خراسان لم ترسل المدد ،فهزم البغداديون ،وقتل المستعين لقد قتل الاتراك المتوكل : المستعين ،والمعتز والمهتدى والمقتدر وسملوا عيون : القاهر والمتقى ،ولابن المعتز أرجوزة في تاريخ المعتضد ،وتسجيل ماله من أياد على الدولة ،صور فيها عسف الاتراك ،ونهبهم الاموال ،وهتكهم الاعراض ،ولعبهم بالخلفاء والكبراء وفيها يقول :

وكل يوم ملك مقتـــول	أو خائف مروع ذليـــل
أو خالع للعهد كيما يغنى	وذاك أدعى للردى وأدنى
وكم أمير كان رأس جيش	قد نقضوا عليه كل عيش
وكل يوم شغب وغضب	وأنفس مقتولة وحرب
وكم فتاة خرجت من منزل	فغصبوها نفسها في المحفل
ويطلبون كل يوم رزقا	يرونه دينا لهم وحقا
كذاك حتى أفقر والخلافة	وعودوها الرعب والمخافة

وماكان للخلفاء مع الاتراك رأى أو سلطان ،حتى فتح أكثرهم من امارة المؤمنين بالسكة والخطبة قبل ان "بحكم" التركي استكثر الامرين على الخليفة الراضي، فاقتطع أحدهما لنفسه وضرب دراهم ودنانير عليها صورته وحولها مكتوب :

"انما العز فاعلم للامير المعظم

سيد الناس" بحكم"

ثانيا : عودة النفوذ الفارسى أو عهد البويهيين (٣٣٤-٤٤٧هـ)

ذكرنا فيما سبق لمحة سياسية عن الحكم فى العصر العباسى الثانى فى جزئه الأول - وهو الجزء الذى ساد فيه النفوذ التركى ، بسبب استعانة الخليفة المعتصم بهم للأسباب التى ذكرناها أيضا وعرفنا أن الأتراك استبدوا بالحكم من دون الخلفاء وكانوا سببا فى ضعف البلاد أكثر مما ضعفت فى عهد سابقيهم من الفرس الذين سادوا فى العصر العباسى الأول.

ونذكر هنا فى الجزء الثانى من العصر العباسى الثانى عودة النفوذ الفارسى ، وهو ما يعرف بعهد البويهيين أو السيادة من الفرس (٣٣٤- ٤٤٧هـ) ثم نذكر بعد ذلك فى الجزء الثالث من العصر العباسى الثانى عودة النفوذ التركى مرة ثانية ، وهو ما يعرف بعهد السلجوقيين من الترك (٤٤٧- ٦٥٦هـ) وهو نهاية العصرين العباسيين الأول والثانى .

وقد سبق سرد أسماء وتواريخ حكم الخلفاء العباسيين فى عهد النفوذ التركى الأول ابتداء من المعتصم (ت ٢٢٧هـ) وانتهاء بالمستكفى (ت ٣٣٤هـ) .

واستكمالا لأسماء وتواريخ حكم الخلفاء العباسيين بعد ذلك ، فى عهدى النفوذ التركى ثم النفوذ الفارسى ، أى حتى نهاية الدولة

العباسية سنة ٦٥٦هـ. نذكر هؤلاء الخلفاء وتواريخ توليهم الخلافة وهم :-

١ - عبدالله المستكفى بالله (٣٣٣ - ٣٣٤هـ)
٢ - القاسم المطيع للـــه (٣٣٤ - ٣٦٣هـ)
٣ - ابوبكر الطائع للـــه (٣٦٣ - ٣٨١ هـ)
٤ - أحمد القادر باللـــه (٣٨١ - ٤٢٢ هـ)
٥ - عبدالله القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧هـ)
٦ - عبدالله المقتدى بأمر الله (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ)
٧ - أحمد المستظهر باللـه (٤٨٧ - ٥١٢ هـ)
٨ - فضل المسترشد باللـــه (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) .
٩ - المنصور الراشد باللـــه (٥٢٩ - ٥٣٠ هـ)
١٠ - محمد المقتفى لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥هـ)
١١ يوسف المستنجد بالـلـه (٥٥٥ - ٥٦٥ هـ)
١٢ - حسن المستضىء بامرالله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ)
١٣ - أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ)
١٤ - محمد الظاهر بأمر الله (٦٢٢ - ٦٢٣ هـ)
١٥ - منصور المستنصر باللـه (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ)
١٦ - عبدالله المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ).

نعرف أنه فى العصر العباسى الاول كان حكم العباسيين ينتظم المشرق الاسلامى كله الا خراسان التى انفصلت قبل حكمهم بقليل ، ولكنهم مازالوا بحمقهم وخرقهم حتى تمزقت دولتهم فأصبح الخليفة فى بغداد لايتبعه الا العراق والجزيرة العربية التى انهكتها الفتنة وثورات العلويين ، والزط الزنج ، والقرامطة وما زال الفرس يتحينون الفرصة وسيطروا على الخليفة والخلافة بدلا عن الاتراك ، وأقاموا فى بغداد يتصرفون فى أمور الدولة باسم الخليفة ، غير حافظين عهدا ، أو مراعين للخلفاء حرمة ، بل سائرين مسيرة الترك منهم فى الاستهانة والتنكيل بهم ، فكان يخطب لهم على المنابر ، وتضرب أسماؤهم على الدنانير والدراهم ثم صادروهم على أموالهم ، وسملوا عيونهم وخلعوهم ، وبلغ من استهانتهم واستهتارهم بالخلفاء وخسة وضعة أفعالهم معهم ، أن أحتاج أحدهم وهو بهاء الدولة الى مال ، فدبر خلع الخليفة الطائع لله فاستأذنه فى الحضور لتجديد العهد له ، فلما دخل عليه قبل الارض بين يديه وجلس ، فتقدم بعض الديلم كأنهم يريدون تقبيل يد الخليفة فلما بسطها اليهم — جذبوه عن سرير الديلم وهو يستغيث ، ونهبوا داره ، واستهانوا من كان بحضرته من القضاة والاشراف ، وسلبوهم ثيابهم .

ويصف الشريف الرضى شعوره لما حدث وكان حاضرا ، فيقول من قصيدة له فى ذلك :

لواعج الشوق تخطيهم وتصيبنى … واللوم فى الحب ينهاهم ويغرينى
من لى ببلغة عيش غير فاضلة … تكفنى عن أذى الدنيا ، وتكفينى
اذا ظننا وقدرنا جرى قدر … بنازل غير موهوم ومظنون
اعجب بمكة عيشى بعد ما رميت … من النوائب بالابكار والعون
ومن نجاتى يوم الدار حين هوى … غيرى ، ولم أخل من حزم ينجينى
مرقت منها مروق النجم منكدرا … وقد تلاقت مصاريع الردى دونى
من بعد ماكان رب الملك مبتسما … الى ، أدنيه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه … لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى … ياقرب ماعاد بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانية … قد ضل ولاج أبواب السلاطين

وهذا الفعل الشائن بالخليفة الطائع شبيه بما حدث للخليفة المستكفى قبله ، وهكذا كان حال الخلفاء مع البويهيين الفرس ليس بأقل سوءا من حاله مع الاتراك ان لم يزد ... وما زالوا كذلك معهم حتى دالت دولتهم ، وتغلب السلاجقة الأتراك عليهم ودخلوا بغداد سنة ٤٤٧هـ .

وظلوا مع الخلفاء سيرتهم الاولى وسيرة البويهيين حتى
كانت غارة التتار على العراق وانتهاء الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ

في خلال غلبة البويهيين على الدولة الاسلامية تفككت الأوصال وما أعلن من ضعف سلطان الولاة ولاية الى غيره من بيت ملكه منهم ممن لم يعد في حاجة الى حكم الخليفة في بغداد وهكذا ظهرت في المشرق الاسلامي دويلات جديدة [illegible] على أيام الأتراك لاستبداد البويهيين الفرس وهي :-

١ ـ الدولة الغزنوية في الهند وأفغانستان (٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ)
٢ ـ الدولة الفاطمية في مصر والشام (٣٦٢ ـ ٥٦٢ هـ)
٣ ـ الدولة العقيلية في ديار بكر والجزيرة (٣٨٦ ـ ٤٨٩ هـ)
٤ ـ الدولة المزيدية من بني أسد في الحلة (٤٠٣ ـ ٥٤٥ هـ)
٥ ـ الدولة المرداسية من بني كلاب في حلب (٤١٤ ـ ٤٧٢ هـ)

وهذه الدول [illegible] بعد ذلك لاستبداد السلجوقيين عوضا من الدولة السلجوقية من سلاطين وأمراء لأتابكهم ومماليكهم وقوادهم كالخوارزمشاهية والأراتقة والأتابكية وغيرها وعن حلول الايوبيين محل الفاطميين .

أثر الحياة السياسية فى العصر العباسى الثانى فى العلم والأدب

ظهر فى هذا العصر أن الخلفاء كانوا ضعافا ومغلوبين على أمرهم وأن الأتراك والفرس تبادلوا معهم الاستبداد والاستيلاء الحقيقى على السلطة كما كانوا سادرين فى غيهم وعبثهم وفى تدبير المؤامرات لبعضهم وللخلفاء على أن الأتراك كانوا أميين لا يستذوقون طعم الأدب فلا يشجعون الأدباء أو الشعراء ولذلك لم تعد بغداد فى عهد نفوذهم موطن جذب للعلماء أو الأدباء أو الشعراء لأنها فقدت التشجيع والمكافأة فارتحلوا عنها الى غيرها من المواضع العربية الأخرى ولكن ما لبثت بغداد أن استعادت أهميتها وجاذبيتها حين سيطر البويهيون الفرس على الحكم وانضمت الى بقية المواضع الأخرى التى ظهرت فيها دويلات جديدة منشقة عن الدولة العباسية الأم فأصبح الى جانب الضعف السياسى العام فى الدولة قوة أدبية وعلمية وصار يصارع بغداد فى الشهرة العلمية والأدبية وقد يفوقها مدن مثل: القاهرة وحلب والرى وبخارى ونيسابور وغيرها وأخذ ملوك هذه الدول وأمراؤها وقوادها ووزراؤها يتسابقون الى اجتذاب العلماء والأدباء ويجزلون لهم العطايا والهبات حبا فى الشهرة وحسن الأحدوثة ونتيجة لما خلقوه من جو المنافسة كثر الشعراء والكتاب والعلماء.

عمارة اليمني - شاعر كبير سياسي ولد سنة ١٥ هـ وقد طرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن ثم حج سنة ٤٩ هـ فطلب منه والى الحرمين السفارة الى الدولة المصرية قال: فقدمتها سنة ٥٥٠ والخليفة يومئذ الفائز والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك فلما حضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت من النعم

وفي هذه القصيدة يقول:

فهل درى البيت أني بعد فرقته ما سرت من حرم الا الى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللامامة أنوار مقدسة تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا على الخفيين من حكم ومن حكم

وفيها يقول:

أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما وزيره الصالح الفراج للغمم

وكان من أشهر أخلاق عمارة الوفاء ، فلما قتل الصالح بن رزيك وجلس ولده في دار الذهب موطن الشعراء والخطباء يرثون من يحسن رثيه أبى عمارة أن يمسهم بهجاء فكان مما قاله :

ولت ليالي بني رزيك وانصرمت والحمد والذم فيها غير منصرم

إلى أن قال :

ولم يكونوا عدوا ذل جانبه وإنما غرقوا في سيله العرم

والحمد يتحطم عذاله سوى عظيم غائلة فاحذر ولا تلم

ولو تصحت في هيا بقسمي لم يرض فتكته إلا أن يهد قمي

فشكره شاور وأثابه على الوفاء لبني رزيك :

ولما زالت دولة الفاطميين وكان لهم مخلصا ولخلفائهم ذاكرا ، انقلب عمارة حزنا عليهم وحسرة على ماضي أيامهم ولكنه اضطر إلى مدح صلاح الدين.

وما زالت ذكرى الفاطميين تعاوده والأسف عليهم يهاجمه حتى نظم قصيدته الشهيرة في رثاء دولتهم وتعد من أجود الشعر في رثاء الدول.

قال المقريزى : " وبسبب هذه القصيدة قتل عمارة رحمه اللـــه وتمحلت له الذنوب " وأول هذه القصيدة :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل   وجيده بعد حلى الحسن بالعطل

ومنها :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبــة   على فجيعتنا فى أكرم الــدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفهـــا   من المكارم ما أربى على الأمل

وفيها يندد بالفظائع التى أوقعها بهم بنو أيوب :

ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة   فى نسل آل أمير المؤمنين علـى ؟

(توفى سنة ٥٦٩هـ).

الشعر في الشـــام

لما ضعفت الخلافة العباسية ،كانت الدولة الحمدانية تسيطر على الموصل وحلب وديار بكر ،وكان الحمدانيون عربا من قبيلـــة تغلب فكانوا يفهمون الشعر ،ويدركون مافيه من روعة وجمال ،وكان من قبيلتهم في الجاهلية عمرو بن كلثوم أحد أصحاب المعلقات.

وسيف الدولة — ولي الموصل من قبل الخليفة المكتفي ،وبعـــد سنة ٣٣٣هـ تغلب سيف الدولة على حلب ،وسيطر على شمال الشـام، وقضى مدة حكمه ،وكانت ثلاثا وعشرين سنة ، في طرد الروم مـــن حدود آسيا الصغرى ،ومقاتلة العرب الثائرين الطامعين في ملكـــه وقد ظفر بالروم في وقائع كثيرة ،غنى المتنبي فيها بانتصاراته الباهرة . فأدرك دولته شيء من الضعف في أخريات أيامه ،وأصبح خلفـــاؤه عاجزين عن المحافظة على اماراتهم الصغيرة من صولات الروم مـــن الشمال والفاطميين من الجنوب

وقد ندهش حقا اذا نظرنا الى قصر مدة حكمه ،وضيق مـــوارد دولته ثم الى ماكان في عهده من نهضة كادت تعيد عهد الرشـــيد والمأمون فقد جمع ببلاطه أعاظم الأدباء ،وكبار الشعراء الذين كان من بينهم المتنبي الذي اتصل بقصره سنين ،وهو أشعر الشعراء ،ثم أبـــو فراس ابن عمه الفارس المغوار الذي له كثير من القصائد الحماسية الرائعة

ورصباته التي قالها في الأسر تثير الحزن وتبعث الشجون ، ومن شعرائه السرى الرفاء أكبر الوصافين وأبو العباس الناى وابو الفرج الببغاء وابن نباتة السعدى .

وممن اتصل بدولته أبو الفرج الاصفهاني ، الذى أهدى اليه كتابه " الاغاني " فوصله سيف الدولة بألف دينار ، واعتذر اليه لقلة الصلة وعظم الهدية .

وكان خطيب جيوشه عبد الرحيم بن نباته الذى كان يثير حماسة الجند بروائع خطبه عند مصادمه الروم .

وعاش في كنفه فيلسوف الاسلام الاعظم أبو نصر الفارابي ونزل في داره كثير من علماء اللغة والادب ، أشهرهم ابن خالويه الذى كانت ترحل اليه الطلبة من جميع الاقطار .

وقد بذل سيف الدولة للشعراء المال الكثير ، لانه كان عربيا جوادا أريحيا يهتز للمديح ، فنهض الشعر في عهده نهضه مباركة .

وروى التاريخ لسيف الدولة شعرا جيدا ونقدا في الادب يدل على ذوق عربي مستقيم ، فمن جيد شعره :

رب هجر يكون خوف هجر ⁂ وفراق يكون خوف فراق

ومات بحلب سنة ٣٥٦ هـ .

الشعر في مصـــــــــــر

حينما ضعف أمر الخلافة العباسية ،واستقلت اماراتها كانت مصر والشام في يد محمد بن طُغج الاخشيد منذ سنة ٣٢٣هـ من قبل أمير المؤمنين الراضي " والشعراء في هذا العصر مغمورون لانكاد نحس منهم من أحد - وأظهر من نعرفه من الشعراء في هذا العصر ابـــن طباطبا

ومن قوله :

خليلي اني للثريا لحاســـد وانى على ريب الزمان لواجـــد
أيبقى جميعا شملها وهي ستة وأفقد من أحببته وهو واحــــد

وفي سنة ٣٥٨هـ تغلب الفاطميون على مصر فملكوها ومدوا ، فتوحهم الى الشام حتى بلغوا دمشق ،وأسسوا مدينة القاهرة ،وجعلوها حاضرة ملكهم .

وكان الخلفاء الفاطميون ،وخاصة أولهم المعز لدين الله ،ينافسون بغداد في كل شيء من أسباب العلم والأدب والحضارة ،وكانت مصر فـي أكثر أيامهم فياضة بالخير ،وقد كثرت في أيامهم الأعياد التي كانت مجالا فسيحا للشعر.

اتصل بهم كثير من الشعراء بين شيعة وسنيين .

ومن أشهر من اتصل بالمعز من الشعراء بأبو الرقعمق (مات سنة ٣٩٩هـ)

ومن مجونه :

لو برجلي مابرأسي لم أبت الا بنجد
خفة ليست لغيري لا أراني الله فقدي

وكافيك أن تعلم كثرة الشعراء وجود الفاطميين في صدر هذا العصر ؟ مما ذكره ابن خلكان ، وهو أنه غداة وفاة الوزير يعقوب بن كلس زار الشعراء قبره فرثاه مائة شاعر وأجيز كل منهم ، وكان يجيد الشعر في أخريات هذه الدولة الشاعر الصالح طلائع بن رزيك ، الذي كان وزير الدولة في أيام الفائز والعاضد مستبدا بشؤونها ، توفي سنة ٥٥٦هـ .

ولما جلس في دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة :

انظر الى ذي الداركم قد حل ساحتها وزير
ولكم تبختر آمنا وسط الصفوف بها أمير
ذهبوا فلا والله ما يبقى الصغير ولا الكبير
ولمثل ماصاروا اليه من الفناء غدا نصير

وكثيرا ما يردد فى شعره مثل هذه المعانى ويجاهر بعلو شأنه ويسرف فى ذم الدنيا ناقما منها فيقول :

وخلائق الدنيا خلائق مومس للمنع آونة وللاعطاء
طورا تبادلك الصفاء وتارة تلقاك تنكرها من البغضاء

وتجده أيضا فى اكثر شعره منقبض الصدر مبتئس النفس تضيق به الدنيا فيندب أيامه الماضية ويملل العمر أحيانا فيقول :ـ

وما كل أيام المشيب مريرة ولا كل أيام الشباب عذاب
أؤمل ما لا يبلغ العمر بعضه كأن الذى بعد المشيب شباب

أما رثاؤه فمن أفضل الشعر وأجمعه للمعانى الفلسفية كما قال فى رثاء والدته :

أبكيك لو نقع الغليل بكائى وأقول لو ذهب المقال بدائى
وأعوذ بالصبر الجميل تعزيا لو كان بالصبر الجميل عزائى
ما كنت أذخر فى فداك رغيبة لو كان يرجع ميت بفداء
قد كنت آمل أن أكون لك الفدا مما ألم فكنت أنت فدائى

وغزله رقيق ليس فيه فحش ولاهجر كقوله :

قال لي صاحبي غداة التقينا　　نتشاكى حر القلوب الظماء
كنت خبرتني بأنك في الوجد　　عقيدي وأن داءك دائي
ما ترى النفر والتحمل للبين　　فماذا انتظارنا للبكاء ؟
لم يقلها حتى انثنيت لما بي　　أتلقى دمعي بفضل ردائي

وقال في المدح :

ألبستني نعما رأيت بها الدجى

صبحا وكنت أرى الصباح بهيما

وغدوت يحسدني الصديق وقبلها

قد كان يلقاني العدو رحيما

ومن غزله الرقيق قوله :-

بنفسي من أجود له بنفسي

ويبخل بالتحية والسلام

وحتفي كامن في مقلتيه

كمون الموت في حد الحسام

الشريف الرضي

هو أبو الحسن بن الطاهر أحمد بن ابى الحسين ، وجده الأعلى الحسين بن على بن أبى طالب . ولد ببغداد سنة ٣٥٩ هـ . وتوفى هناك سنة ٤٠٦ هـ .

وكان الشريف الرضي ، لعلو منزلته وشرف نسبه ، ذا نفس أبية وكانت فيه هيبة وجلالة يرى فى نفسه فضلا عظيماً ، وهذا ما دفعه الى الميل الى الفخر فى شعره ، والتحدث بكرم أخلاقه ، والتغنى بعلو نسبه وحسبه ، وحذق اللغة العربية وفروعها ، وقرأ علوم الدين ، وصنف فى ذلك كتبا ، كما صنف فى الأدب والتاريخ . وهو الذى جمع كتاب نهج البلاغة المعروف ، المحتوى على كثير مما نسب الى الامام على بن أبى طالب من الخطب والرسائل البليغة ، فاق كثيرا من أدباء زمانه وشعرائهم .

ويحسب شعر الشريف الرضي من أمتع الشعر العربى وأجزله وأجمعه للمعانى النفسية والفلسفية ، ونقد الاجتماع وشكوى الزمان ، وأكثر شعره فى المدح والفخر والرثاء والشكوى . وكثيرا ما كان يعنى بأحواله الخاصة والميل الى التمدح بصفاته فيقول :—

أكر طرفى فلا أرى أحدا   الا مغيظا على مضطغنا

ماضرنا أننا بلا جدة   والبيت والركن والمقام لنا

الشعر خارج بغداد بعد انقسام الدولة :

كان الانقلاب السياسي وضعف دولة بني العباس في القرن الثالث الهجري ، وانقسام الدولة الى ممالك وامارات ، أن تفرقت جهود العلماء والأدباء التي كانت مدينة بغداد مقرا لها اكثر من قرنين من التاريخ الاسلامي ، فانتقل كثير من الأدباء والشعراء الى خراسان وتركستان حيث أنشأ السامانيون دولتهم ، والى فارس والعراق ، حيث أقام بنو بويه هنالك ملكهم ، وذهب جماعة منهم الى أفغانستان والهند مع الدولة الغزنوية ، وبعضهم الى جرجان مع الدولة الزيارية ، وكان ملوك هذه الدول يحاكون بذلك مركز الخلافة في بغداد أيام عصرها الزاهر فكان الشعر أسبق علوم الأدب انتشارا ، فكان للشعراء عندهم منزلة رفيعة ، وكثير من هؤلاء الشعراء كان يعيش من شعره ويرتقي الى منصب الوزارة ، فكثر في شعرهم مدح الملوك والسلاطين والتملق لهم ، وكان من بينهم من عرف الآراء الفلسفية والاجتماعية من الكتب التي ترجمت والمعارف التي نقلت اليهم ، واشتمل الشعر على كثير من هذه المعاني الجديدة ، فكان الشعر يحتوي على بعض الآراء الفلسفية والعلمية ، فضعفت ديباجته لعنايتهم بالمعاني دون الخيال .

ومع ما كان هناك من ذيوع الثقافة الفارسية ، والعناية بأدب الفرس وترجمة كثير من الشعر الفارسي ، والامثال الفارسية الى العربية ، كانت الصيغة العربية غالبة على الأدباء ، وأساليب الشعر العربي ما كانت زمام تفكيرهم

فلم يخرج الشعراء عن طريقة الشعر العربى الا فى مزج الحكم والامثال بالشعر وعدم قصر الشعر على الخيال .

وقد ظهرت فى شعر شعراء هذا العصر الاخيلة والاوصاف التى اقتضتها معالم الحضارة ، فامتلأ بأنواع المحسنات اللفظية والمعنوية من أنواع البيان والبديع .

السرى الرفاء

السرى بن أحمد الكندى المعروف بالرفاء نشأ بالموصل وكان وهو صبى يرفو ويطرز فى دكان هناك ، ويختلط بالشعراء وأهل الأدب ، حتى ولع بالشعر وعالج نظمه ، وجاد شعره وذاع أمره بين الشعراء فقصد سيف الدولة بن حمدان بحلب ومدحه ، وأقام هناك الى أن مات سيف الدولة فانتقل الى بغداد ومدح الوزير المهلبى وغيره من كبار الرجال ، وأصبح من المتكسبين بالشعر فى المشرق ، "وكان يعيش من مدائحه ، فأيسر بعد أن كان فقيرا معدما " وكانت وفاته فى سنة ٣٦٢هـ على أرجح الأقوال .

وكان السرى الرفاء أول أمره يخالط العامة من الناس فى الأسواق ، ولما صار من الشعراء المجيدين عاشر الخاصة ، فجمع فى نفسه الى الفكاهة الحلوة وخفة الروح ، حسن الأدب ورقة التعبير وسعة الخيال ، ولكنه لم يأت فى شعره بشئ يدل على قوة التفكير وسعة الاطلاع أو الفلسفة كما فى شعر الشريف الرضى . لأنه لم يتلق العلم عن أحد ، ولم يعن بالاطلاع على غير الشعر الذى كان من هواته ، أما أنواع شعره فهى الغزل والهجاء والوصف والملح والدعابات .

وأما أسلوبه فأسلوب سلس شائق ، لاتكاد تجد به شيئا من التكلف ، على أنه يميل أحيانا الى الصنعة ، ولكنها صنعة خفية تدعو الى الاعجاب .

فمما قاله فى العتاب يتهكم :

قد كانت الدنيا عليك فسيحة   فاليوم أضحت وهى سم خياط
أسخطتنى وجناة عيشك حلوة   فجنيت مر العيش من اسخاطى

وقال يهجو ويتهكم على شاعر قيل انه كان جزارا بالمدينة وسرق من شعره :

أرى الجزار هيجنى وولى   فكاشفنى وأسرع فى انكشافى
ووقع شعره بعيون شعرى   فشاب الشهد بالسم الزعاف
لقد شقيت بمديتك الاضاحى   كما شقيت بغارتك القوافى
توعر نهجها بك وهو سهل   وكدر وردها بك وهو صافى

وقال فى وصف الورد :-

لو رحبت كأس بذى زورة   لرحبت بالورد اذ زارها
جاء فخلناه خدود ابدت   مضرمة من خجل نارها

ومن قوله يذكر صناعته :-

وكانت الابرة فيما مضى   صائنة وجهى وأشعارى
فأصبح الرزق بها ضيقا   كأنه من ثقبها جارى

هـ - ووصفه لرجل أحدب بقوله:

قصرت أخادعه وغاص قذاله ... فكأنه متربص أن يصفعا

وكأنما قصرت قفاه مسرة ... وأحس ثانية لها فتجمعا

و - ووصفه للقيان المغنيات العازفات على الأعواد بقوله:

وقيان كأنها أمهات ... عاطفات على بنيها حوانى

مطفلات وما حملن جنينا ... مرضعات ولسن ذات لبان

ملقمات أطفالهن ثديا ... ناهدات كأحسن الرمان

كل طفل يدعى بأسماء شتى ... بين عود ومزهر وكران

٦ - المبالغة ومجاوزة الحد فى المدح والهجاء اقتداء بالفرس فى تعظيمهم الأكاسرة ودينهم بالحق المقدس للملوك وقد مدح منصور النميرى الرشيد بقصيدة يقول فيها:

خليفة الله ان الجند أوديه ... أحلك الله منها حيث تجتمع

اذا رفعت امرا فالله رافعه ... ومن وضعت من الاقوام متضع

من لم يكن بأمين الله معتصما ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع

فلما اجتمع الشعراء بباب المعتصم بعث اليهم وزيره محمد بن عبد الملك الزيات يقول لهم: من يحسن مثل قول النميرى: خليفة الله فليدخل والا فلينصرف فقام محمد بن وهب وقال: فينا من يقول مثله وأنشد قصيدة منها :-

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو اسحق والقمر
فالشمس تحكيه فى الاشراق طالعة
اذا تقطع عن ادراكها النظر
والبدر يحكيه فى الظلماء منبلجا
اذا استنارت لياليه به الغرر

ومما يتصل بالمبالغة ما أكثروه من الالقاب للتضخيم والتبويل بأقدار الكبار كذى اليمنين أو الرياستين أو الوزارتين أو الكفايتين والالقاب المركبة من اضافة الكلمات الى الدولة أو الدين ، والتى كثرت فى عهد الضعف والانحلال وما أجمل ماقال أبو بكر الخوارزمى فى أحد ذوى الالقاب :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا من الكنى ومن الالقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو كان أولهم ماكان يرضى به للحسن بوابا

٧ — ومن أشد الآثار ظهورا فى هذا العصر ذلك الاثر الضار باللغة والادب ، وهو شيوع اللحن مما أدى الى فساد الملكات واضطراب الالسن بزيادة الاختلاط بالاعاجم فى العصر العباسى وكثرة أمهات الاولاد والحواضن والخدم من العجم ، حتى عدا اللحن على ألسنة العلماء ، فقد ذكروا عن أبى عبيدة معمر بن المثنى وهو عمدة الرواة أن لسانه كان لايستقيم باعراب بيت من الشعر ينشده وأن الفراء كان يلحن ، ولم تعد اللغة العربية أداة للتخاطب ، بل

أصبحت لغة خاصة بالعلم والأدب وأعمال الدواوين أما لغة التخاطب فقد صارت هي العامية التي تستمد ألفاظها من الألفاظ العربية الباقية على أصلها ، أو المحرفة أو المصحفة من المولد بالتوسع في النحت والاشتقاق ، ومن الأعجمي الدخيل على غير ما تواضع العلماء على تعريبه ، متحللة من الاعراب متأثرة في طرق الاداء بالأساليب الاعجمية ، حتى استحالت العربية في بعض الجهات الى عجمة شاملة وصفها المتنبي وهو في طريقه الى عضد الدولة البويهي ببلاد فارس اذ يقول :—

مغاني الشعب طيبا في المغاني

بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربي فيها

غريب الوجه واليد واللسان

وظهرت صور وفنون شعرية بالعامية مثل الزجل والمواليا ، والقوما ، والكان كان ، ولما كانت اللغات القويمة للأعاجم في هذا العصر مختلفة باختلاف الاقطار كان أكثر الغريب في عامية العراق ، فارسيا ، وفي عامية الشام روميا ، وفي عامية مصر قبطيا ، وأما في عامية البادية الحجازية فكان من كل هذا وغيره ، وكان قليل المقدار بالقياس الى ما كان منها في العاميات الأخرى .

الشعر

كانت بغداد فى العصر العباسى الأول مركز الثقافة فى الدولة ومنبت العلم والأدب ،وكان العلماء والأدباء والشعراء فى أطراف الدولة يرحلون اليها ليعرضوا مواهبهم ،وينشروا علومهم وفنونهم، وكانوا يجدون هناك آذانا تستمع لهم ،وعقولا تقدر فضلهم وتعرف منزلتهم ،فيصلون الى الشهرة من أقرب طريق ،ويسير ذكرهم فى الآفاق وتشد اليهم الرحال ،وتدر عليهم أخلاف الرزق.

وكان الخلفاء والوزراء ومن اليهم يتنافسون فى العطايا والصلات والاغداق على المجيدين .

فلما انقسمت الدولة أوطانا واستقلت أطرافها ،وجد الشعر له أوطانا عدة ،وتعددت طرق الشهرة أمام الأدباء والشعراء ،واتسع حولهم مجال الاختيار ،وبعد أن كان الشاعر لايجد أمامه غير بغداد أصبح الان يستطيع أن يختار الأمير الذى يزوره ،والبلد الذى ينزل به ومن العجيب أن انقسام الدولة وضعفها هنا كان سببا فى قوة الأدب ونشاطه ، وذلك لأن ضعف الدولة هنا سبب انقسامها أوطانا وذلك اقتضى أن يكون لكل وطن ملك أو أمير ملأه الزهو ، وأراد أن يجمع لديه أسباب الملك والعظمة ،وأن يعيد الى العلم والأدب أيامهما ،وأن ينافس الأمراء حوله ،وأن يجعل اماراته مباءة الأدباء والعلماء

وقد عرف أن الشعر خير أسباب الاذاعة ،وأعظم وسائل الشهرة فأغرى الشعراء بزيارته والاقامة فى كنفه ،وغمرهم بصلاته فارتفع شأن الشعر وجود الشعراء فيه ،وسبب آخر دعا الى رقى الشعر،وذلك أن الغرس الذى نبت ونما فى العصر العباسى الأول آتى أكله فى هذا العصر ،وأن جميع الوسائل التى بذلت فى إنهاض العلوم والفنون أيام العباسيين الأولى ظهرت آثارها ،وأن احياء العلوم والاقبال على ترجمة آثار الأولين من فرس وروم ويونان فى عهود المنصور والرشيد والمأمون وغيرهم ظهر فى الكتابة العربية فى العصر الثانى ،فتجلت آثار هذه الثقافة القديمة فى أشعارهم ،وتلون الشعر بلون جديد يدل على عراقة فى المدنية ،وتمكن فى أسباب الحضارة ،ولم يعد يظهر فيه آثار البداوة الا بقدر المحافظة على جمال الاسلوب وروعة البيان .

فأنت ترى فى هذا العصر شعرا فلسفيا ،وترى فيه شعرا صوفيا ، كما فى شعر المتنبى والمعرى وابن الفارض ،وكاد المنطق يقضى فيه على روعة الخيال ،وأدخلوا اصطلاحات العلوم العقلية والرياضية فى عباراتهم وتشبيهاتهم ،ومن أشهر شعراء الفلسفة : ابن سينا والرازى وابن التلميذ الطبيب ،ومن أشهر شعراء التصوف الحلاج والشبلى والقشيرى . وكثر فى هذا العصر الشعر التهكمى والهزلى ،كما فى شعر ابن حجاج وابن سكرة وأبى الرقعمق وصريع الدلاء واستجد أو كثر فى هذا العصر

التراسل بالشعر فحل الشعر محل الكتابة وكثرت قصائد التهانـــى بالاعياد والمواسم ،التى تعددت أيامها فى العهد الفاطمى كمـــا شاع وصف الوقائع الحربية لكثرة الحروب بين المسلمين وغيرهم من الروم والصليبيين • وقال الشعراء وأفاضوا فى التهنئات بالفتوح والحض على الجهاد • ويمتاز الشعر الشامى - ولاسيما فى طليعة هذا العصر - بقوة الأسلوب وبلاغته وكثرة المعانى ودقتها ،واتساع مدى الخيال وذلك لقرب الشام من بلاد العرب مهد العربية ،ومن العراق منشأ الحضارة الاسلامية وقد كثر فى الشام أول هذا العصر الشعراء الوصافون الذين لايشق لهم غبار،وهم معظم من اتصلوا بسيف الدولة كالسرى الرفـــاء وكشاجم وغيرهم وقد بلغ الشعر منتهى رقيه فى صدر هذا العصر،ثــم أخذ فى التدلى شيئا فشيئا ،وكأنه أراد أن يستعيض عــن فخامة الأسلوب ودقة المعانى بالرقة والانسجام ،فنجح أكـــثر النجاح حتى وصل الى غاية الرقة بظهور بهاء الدين زهير وأمثاله فـــى الدولة المصرية أيام الصلاحيين ،وبهذه الميزة وحدها فاق الشعـــر الشامى وظهر عليه - وظهرت العناية بأنواع البديع فى هذا العصـــر وتعمدها الشعراء تعمدا لتحلية أشعارهم وتزيينها وقد كانت بدايـــة الاهتمام بالبديع فى العصر الأول ،فكان مسلم بن الوليد يجمل شعـره بالبديع أحيانا ،ولكنه لم يغرق ولم يتجاوز الحد ،ثم تلاه أبو تمام فأولع وملك عليه الجناس نفسه ،وكاد يفسد عليه شعره ، لولا ذوق أصيل يحول بينه وبين التدهـــــــــــــــــور

وكان البحترى يقصد الى البديع أحيانا ،ولكن ديباجته البديعة كانت تأبى أن يؤخذ عليها شيء من تكلف الصناعة ،ثم جاء ابن المعتـز وألف فى البديع ،وأغرم به بعض الاغرام ،ورقش به شعره ،ولكن دقـة صناعته ،وحسن تشبيهاته ،حالت دون أن يهون شعره ،ودون أن يسقطه عبث الصناعة اللفظية .

واذا رجعنا الى هذا العصر رأينا للبديع فيه سوقا رائجة ،وحظـا موفورا فأكثر الشعراء منه وتعمدوه ،كقول الوأواء الدمشقى :ـ

يطوف براح ريحها ومذاقهـا نعيم الصبا والعيش فى زمن الصبـــا

وقول ابى الفتح البسـتى :

اذا تحدثت فى قوم لتؤنسهم بما تحدث من ماض ومـــن آت
فلا تعد لحديث ان طبعـهم موكل بمعاداة المعـــــادات

ولا يكاد أديب عباسي لم يشارك في ضرب المثل وازجـــاء
للحكمة ، ومن أشهرهم : بشار وصالح بن عبد القدوس ، وأبو العتاهية
والمتنبي ، والمعري يقول بشار :

اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حـــازم

ويقول صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الاعداء من جاهـــل ما يبلغ الجاهل من نفســـه
والشيخ لا يترك أخلاقـــه حتى يوارى في ثرى رمســـه
اذا ارعوى عاد الى جهلـه كذى الضنى عاد الى نكســه
وان من أدبته في الصبـــا كالعود يسقى الماء في غرســه
حتى تراه مورقا ناضــــرا بعد الذي أبصرت من يبســه

ويقول المتنبي :-

والهم يخترم الجسيم نحافــة ويشيب ناصية الغلام ويهـــرم
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعــم
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الــدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلــه لا يظلـــــم

ويقول المعري :

تواصل حبل النسل ما بين آدم وبيني ولم يوصل بلامي بـــاء
تثاءب عمرو إذ تثاءب خالــد بعدوى ، فما أعدتني الثوبـــاء
وزهدني في الخلق معرفتي بهم وعلمي بأن العالمين هبـــاء

وجمع أبو العتاهية في أرجوزة حكمه سماها "ذات الأمثال" نحو أربعة آلاف مثل ؛ ومنها :-

حسبك مما تبتغيه القـــوت ما أكثر القوت لمن يمـــوت

الفقـر فيما جاوز الكفافـــا من اتقى الله رجا وخافـــا

لكل ما يؤذي وإن قل ألـم ما أطول الليل على من لم ينـم

٤ - الإكثار من الاستدلال بالحجج العقلية نتيجة لدراسة الفلسفة والمنطق ، ولذلك كثر في أدبهم حسن التعليل والمذهب الكلامي والتذييل المشتمل على التشبيه الضمني ، ومن أمثلة ذلك .

أ - استدلال أبي تمام العقلي على جواز مدحه للأمير بتشبيهه بمن هم دونه فقد روى أن أبا تمام مدح أحمد بن المعتصم بقصيدته التي مطلعها :

ما في وقوفك ساعة من باس تقضي حقوق الأربع الأدراس

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

فقال له الفيلسوف الكندي :

الأمير فوق من وصفت فأجـــاب أبو تمام على البديهة قائلا :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثـلا شرودا في الندى والبـاس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثـــلا من المشكاة والنـــبراس

ب ــ استدلال ابن الرومي على أن تطويل المدح دليل على بخل الممدوح وذلك اذ يقول :ــ

واذا امرؤ مدح امرأً لنواله   وأطال فقد أطال أله وهجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى   عند الورود لما أطال رشــاءه

جـ ــ تعليل ابن الرومي بكاء الطفل عند ولادته بانه بسبب ماسوف يلقى في الحياة من ضروب المتاعب ، وذلك اذ يقول :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها   يكون بكاء الطفل ساعة يولــد
والا فما يبكيه فيها وانهـــــا   لأوسع مما كان فيه وأرغــد
اذا أبصر الدنيا استهل كأنه   بما سوف يلقى من أذاها يهدد

د ــ استهجان ما تواضع الناس على استحسانه من تشبيه المحبوبة بالدليل العقلي ، وذلك اذ يقول عبد الرحمن بن المنجم :ــ

شبهتها بالبدر فاستضحكت   وقابلت قولي بالنكــــر
وسفهت قولي وقالت مـــتى   سمجت حتى صرت كالبدر ؟
البدر لا يرنو بعين كمـــا   أرنو ولا يبسم عن ثغـــر
ولا يميط المرط عن ناهـــد   ولا يشد العقد في نحـــر
من قاس بالبدر صفاتي فــلا   زال أسيرا في يدي هجـــري

٥ - براعة التصوير والافتنان فيه لما اطلعوا عليه من الآداب الأخرى بالترجمة، ولما بلغوه وعاشوا فيه من الحضارة والترف ومن أمثلة ذلك:

أ - وصف ابن المعتز - وهو الخليفة ابن الخليفة - للهلال، اذ يقول:

انظر اليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

ب - وصفه للآذريون، وهو زهر أصفر في وسط خمل أسود، اذ يقول

كأن آذريونها ... والشمس فيه كاليه

مداهن من ذهب ... فيه بقايا غاليه (١)

جـ - وصف ابن الرومي لصانع الرقاق اذ يقول:

ما أنس لا أنس خبازا مررت به ... يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر

الا بمقدار ما تنداح دائرة ... في لجة الماء يلقى فيه بالحجر

د - وصفه لقالي الزلابية اذ يقول:

رأيته سحرا يقلي زلابية ... في رقة القشر والتجويف كالقصب

كأنما زيته المقلي حين بدا ... كالكيمياء التي قالوا ولم تصب

يلقى العجين لجينا من أنامله ... فيستحيل شبابيكا من الذهب

---

(١) الغالية: المسك، ولونه أسود.

وزير لايمل من الرقاعه ... يولى ثم يعزل بعد ساعة

ويدنى ممن تعجل منه مال ... ويبعد من توسل بالشفاعة

على أن بعض ذوى الفضل والدين استهجنوا تلك الأحوال فزهدوا في الأعمال وفي الحياة تاركين العاجلة للآجلة ، وقد كتب الرشيد الى سفيان الثوري يلوح له بعطاء فرد عليه بما أشجاه وأرادوه على تولى قضاء الكوفة فهرب من وجه الطلب ، وظل مختفيا حتى مات بمكة سنة ١٦١ هـ . وبعث المعتضد بألف دينار الى ابراهيم بن اسحاق الحربي فردها ، وقد عاش أكثر عمره على كسر يابسة وملح .

وأما من لم تتصل أسبابه من العلماء والادباء بأهل الغنى والثراء — فقد عاشوا مع سواد الشعب يعانون قسوة الحياة وذل البؤس حتى يتعجل بعضهم الموت لشدة الجوع بالانتحار ، وقد استغاث الشاعر ابو العتاهية من أهل بغداد اذ يقول :

من مبلغ عني الامام نصائحا متواليه ؟
أني أرى الأسعار أسعار الرعية غاليه
وأرى المكاسب نزرة ... وأرى الضرورة فاشيه
وأرى غموم الدهر ... رائحة تمر وغاديه

وأرى اليتامى والأرامل فى البيوت الخاليه
من البطون الجائعات وللجسوم العاريه ؟

وقد قام الشعب فى بعض الأحيان بثورات ، كما حدث حين ثار عامة بغداد بابن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى وشغبوا عليه .

لقد أحيا ظهور الموالى فى هذا العصر الشعور القوى لديهم فبدت البغضاء للعرب من أقوالهم وأعلنوا مآثر العجم ومجدهم وسجلوا ذلك فى شعرهم من أمثال بشار والخريمى ومهيار ، وانبرى لهم من الشعراء والعلماء من دافع عن العرب وانتصر لهم كالجاحظ وابن قتيبة وانغماس الأدباء فى الترف والمجون مكن لهم من تصوير تلك الحضارة المشرقة ووصف مظاهرها ومباذلها وتحسين الخلاعة والمجون — كما فى شعر بشار ووالبه بن الحباب ومسلم بن الوليد وأبى نواس . وفى مقابل هذه الحركة المادية السائدة قامت حركة الزهاد فنفروا من الدنيا ورغبوا فى الآخرة كما فى شعر أبى العتاهية وجاءت المقامات لتحكى قصص الكادحين الذين يحتالون على العيش بالمكر والخداع وفى مقابل فساد الحكم وقف من ينادى بالاصلاح كابن المقفع ، ومن يندد بالحكم كأبى العلاء .

دلائل تأثر الأدب بالحياة السياسية والحياة الاجتماعية في العصر العباسي الثاني :

تأثر الأدب شعرا ونثرا بالحياتين السياسية والاجتماعية في العصر العباسي الثاني ، ومن دلائل ذلك :-

١ - الاكثار من الألفاظ الأجنبية : فقد دخل في اللغة العربية كثير من الألفاظ الأجنبية لما أطلعتهم عليه الحضارة من المسميات الجديدة ووقفتهم عليه الترجمة من المصطلحات العلمية ، ولئن كانت اللغة العربية منذ جاهليتها قد استعارت بعض الألفاظ الاعجمية وقد ورد منها في القرآن الكريم كلمات معربة .. الا أن العصر العباسي استكثر من ذلك فأخذ الكثير من الألفاظ من الفارسية واليونانية والهندية والتركية كالبهرج (الباطل) والشاهين (الصقر) ، والجوسق (القصر)(١) .

٢ - الامتلاء من المعاني الدقيقة : فقد كان الاطلاع على الآداب الأجنبية سببا في امتلاء الأدب العباسي بالمعاني الدقيقة التي قد تصعب على الفهم وتكد الذهن ومن ذلك قول المتنبي في ابن العميد :

من مبلغ الأعراب أني بعدها ... شاهدت رسطا ليس والاسكندرا

وشهدت بطليموس دارس كتبه ... متملكا متبديا متحضرا

(١) ينظر " المعرب فيما تكلمت به العرب من الكلام الاعجمي ".

وقول اسحاق بن ابراهيم الموصلي :

أخاف عليها العين من طول وصلها
فأهجرها الشهرين خوفا من الهجر
وماكان هجراني لها عن ملالـــة
ولكنني أملت عاقبـــة الصـــبر
أفكرني قلبي بأي عقـــو بـــة
أعاقبه فيها لترضى فمـــا أدري
سوى هجرها والهجر فيه دمـــاره
فعاقبته فيها من الهجر بالهجـــر
فكنت كمن خاف الندى أن يبلـــه
فعاذ من الميزاب والقطر بالهجـــر

وكقول الخوارزمي :

قد عصاني دمعي وخلي فخلت
الخلي دمعا ، وخلت دمعي خـلا

٣ـ الاكثار من الحكم والامثال : فقد نقلوا من ذلك الكثير عن الهندية واليونانية والفارسية ، وأكثر ما نقلوه من ذلك كان نثرا ، وان كان بعضه قد جاء شعرا ومنه قول الابيوردي في قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس صيامي اذا أفطرت بالسحت مثله وعلى اذا لم يجد ضرب من الجهل وتزكيني مالا جمعت من الربـــا رياء وبعض الجود أخزى من البخل

أن التزاوج من الغرباء يحسن النسل ، لأنه يجمع مزايا الأبوين

ففي الأثر : اغتربوا لا تضووا ، ويقول الشاعر :

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيضوى ، وقد يضوى رديد القرائب

ويقول الراجز :

أنذر من كان بعيد الهم تزويج أولاد بنات العم

فليس ينجو من ضوى وسقم

لقد ضمت الدولة العباسية أخلاطا شتى من أصول العالم الثلاثة : السامية والارية والحامية ، وتلاقت هذه العقول والعقائد والثقافات ونشأ جيل منها جديد وارثا عنها مزاياها ، مكتسبا منها عاداتها وقلد العرب الأعاجم في ملابسهم وكانت خاصة الخليفة يلبسون . القلانس الطوال ، ويرتدون دراعات مكتوبا عليها من الخلف بين الكتفين : "فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم " فقال في ذلك أبو دلامه على سبيل الاضحاك ، وكان مقربا من المنصور :

وكنا نرجى من امام زيادة فجاد بطول زاده في القلانس

تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

واحتفلوا باعيادهم احتفالهم بالأعياد الاسلامية . ونقلوا ماشاع في حضاراتهم من ترف فأسرفوا في الانفاق اسرافا لم يعهد من قبل وعاونهم على ذلك كثرة موارد الدولة ، حتى نرى الرشيد حين يتزوج زبيدة يولم للناس وليمة يهب فيها اواني الذهب .

مملوءة فضة ، وأواني الفضة مملوءة ذهبا . والمأمون يحظى بوران ، بنت الحسن بن سهل ليلة اعراسه بها ألف حصاة من الياقوت ، ويبسط لها فرشا كان الحصير فيها منسوجاً بالذهب ، مكللا بالدر والياقوت ، أما خمارويه بن أحمد بن طولون فانه حينما خطب المعتضد بالله الخليفة العباسي ابنته قطر الندى — جعل في جهازها مائة هاون من الذهب ، وأعد لها دكة من أربع قطع من الذهب ، وعليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف له قيمة ، وبنى على رأس كل مرحلة من مصر الى بغداد منزلا تنزل فيه فتجد به من الفرش والمعدات ما تشعر به أنها في قصر أبيها . وأنشاوا المصانع الضخمة ، والقصور الفخمة .

ويكثر المتوكل من بناء القصور بسر من رأى ، ويكون منها : التاج والثريا والجعفري ، والشيدان ، والغريب ، والصبح ، والمليح ، والبرج وغيرها ، وفي وصف الجعفري يقول بن الجهم :

وما زلت أعلم أن الملوك تبني على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجال يقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الامام رأينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارس ولا الروم في طول أعمارها

صحون تسافر فيها العيـــون اذا ماتجلت لابصارهـــا
وقبة ملك كأن النجـــوم تفضى اليهــا بأسرارهـــا
نظمنَ الفسافس نظم الحلـي لعون النساء وأبكارهـــا

فقد كان هذا الترف أشد الدواعي لارتكاب الموبقات والاغـــراق في الملذا ت حتى التمسوا الشهوات لدى الغلمان فضلا عن النساء وانتقل الترف والاسراف في الملذات من الخاصة الى العامـــة ، وانجر له حتى القضاة والرهبان ،وانتشر المتجرون باللذات فـــى الامصار واستشرى الفساد بالقول فى شعر الشعراء وبالعمل فى فعل الفساق والشطار الذين بلغت جرأتهم أن كانوا يختطفون النســاء والغلمان من الطرق ،وقد حاول المهتدى بالله وكان زاهدا أن يحمل الناس على السلوك القديم ،فأمر بالمعروف ونهى عن المنكـر ولكن الناس ، استثقلوا واستطالوا خلافته ،وما زالوا به حتى قتلـــوه قبل أن يكمل عاما فى الخلافة وقد دفعت هذه الحياة الناس الـــى الطمع والجشع فتمتـد الى الرشوة أيدى العمال ،بل أيدى الوزراء وكانوا يقامرون للكسب ،ولو كان القمار على الكتب بل أن الخاقانى وزير المقتدر قد ولى على الكوفة فى يوم واحد تسعة عشر واليا أخذ مـن كل منهم رشوة وفيه يقول أحد الشعراء :

وأتـوا من الشعر والعلم بكل عجيب غريب .

ولئن لم يكن هذا العصر عصر الأدب - فقد كان بغير شك - هـو عصر العلم والتأليف الذهبي ، فقد ارتقت في هذا العصر العلوم التي نشأت فيه ، وتكاملت علوم السلف بالرواية ، وأتت ترجمـة العلوم الدخيلة أكلـها وقد أعان على هذه الثورة العلميـة الجديدة كثرة المكتبات في هذا العصر وإباحتها للمطلعين ومن أمثلتها : مكتبة العزيز الفاطمي بالقاهرة ومكتبة الحاكم بأمر اللـه الفاطمي بالقاهرة ، وكانت تسمى دار الحكمة ودار العلم ، ومكتبـة سيف الدولة الحمداني بحلب ، ومكتبة ابن العميد وزير البويهيـين بالري في جنوبي فارس ، وكان يقوم على تدبيرها ابن مسكوية صاحب كتاب تجارب الأمم ، ومكتبة سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بـن بويه ببغداد ، ومكتبة نوح بن منصور الساماني ببخارى .

وكما كان الحال في عهد البويهيين من اضمحلال الأدب وركود ريحه وظهور النهضة العلمية - كان الحال في عهد السلاجقة الذين حلوا محل البويهيين ، وفي عهد الايوبيين الذين خلفـوا الفاطميين ، وظهرت الموسوعات في هذا العهد والكتب الجامعـة التي تحوي الكثير من المعارف والحقائق العلمية وكذلك كثرت المدارس وانتشرت في حواضر البلاد ، فاستقلت عن المساجد بأبنية خاصة

تتصل بالمساجد أوتنفصل عنها، ويرتب لها المدرسون ، وتجرى عليهم وعلى تلاميذهم الأرزاق . ومن لهم فضل فى انشاء المدارس فى هذا العهد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى فهو الذى أنشأ المدرسة النظامية فى بغداد وكان من أساتذتها حجة الاسلام الامام الغزالى ، وأبو اسحق الشيرازى ، وأبو زكريا التبريزى والسهروردى الشاعر، وقد بنى نور الدين زنكى مدارس فى دمشق وحلب وحماة وبعلبك ، وأنشأ صلاح الأيوبى مدارس فى مصر والاسكندرية .

الحياة الاجتماعية وأثرها فى العلم والأدب فى هذا العصر :

قرر الاسلام المساواة بين الناس فقال تعالى : " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم " و قرر أن المؤمنين اخوة ، وأنه لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، وأسلم الاعاجم على هذا المبدأ وصادفوا حرصا من النبى وأصحابه على تطبيقه كما ورد فى أحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا وعن عمر : " لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته " وعن على أنه كان لا يفضل شريفا على مشروف ، ولا عربيا على عجمى وذهب اليه بعض أصحابه وطلبوا منه أن يفضل الاشراف من العرب وقريش فى العطاء على الموالى والعجم ،

فقال لهم أتامروننى أن أطلب النصر بالجور؟

ولكن الأمويين خالفوا هذه القاعدة ، وتعصبوا للجنس العربى فجاروا على الأعاجم ، ولم يولوا أعمالهم لغير العرب حتى القضاء بين الناس والامامة فى الصلاة ، بل حرموا على الاعجمى أن يتزوج من عربية ، واحتقر عامة العرب الأعاجم ، حتى كان العربى اذا أقبل من السوق ومعه شئ فرأى مولى دفعه اليه ليحمله عنه فلم يتيسر للاجانب سبيل الاندماج فى الحياة والتأثير فيها ، وجاء العصر العباسى فتغير الحال وانتقل التعصب للعرب الى التعصب للاعاجم بل أهمل العرب ، وأقصوا عن رفيع المناصب ، وأصبح العنصر الأجنبى ليس مشاركا فى السلطة والنفوذ فحسب بل مسيطرا ومهيمنا ، وقد ساعد على شيوع العناصر الأجنبية والتسرى بالسبايا أسباب ، منها : أن تملك الاماء كان بعد المعاينة بخلاف الزواج الذى كان يتم بواسطة الخاطبة ، ولما تعرف المرأة من المرأة – كما يقول الجاحظ ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فانها لاتعرف ذلك ، ومنها ما ظهر من نجابة أولاد الاماء ، ولهذا بلغ عدد جوارى الرشيد ألفين ، والمتوكل أربعة آلاف ، وكاد خلفاء بنى العباس يكونون جميعا من امهات الأولاد ، ونشأ جيل من الولدين تربى فى حجور هؤلاء السرارى والحواضن فتأثر بهن فى خصائصه الجسمية والعقلية وانعكس ذلك على أدبه ، والعرب من قديم تعرف

واستمر الشعر قويا بالشام بعد زوال الدولة الحمدانية وماوليها من دويلات ، حتى جاء حكم نور الدين محمود بن زنكى ، فرأى الشعر الشامى فى الحروب الصليبية مجالا فسيحا فصال وجال .

والحق أن الشعر فى الشام كان كثيرا جدا فى هذه الفترة ، وكان معظمه جيدا . وقد التف الشعراء - وهم كثيرو العدد - حول الغزاة فى الحروب الصليبية يسجلون بطولتهم ، ويغنون فتوحاتهم ، فلم يتركوا موقعة الا دونوا حوادثها ، ولا انتصارا إلا أشادوا به .

وكانت وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ . وعلى الرغم من كثرة الشعراء فى أيامه والتفافهم حوله ، ذكروا فى ترجمته أنه كان قليل الابتهاج بالشعر متهما بالبخل .

وقال فيه اسامة بن منقذ :

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة ∴ من المعاصى وفيها الجوع والعطش

نماذج من الشعر فى الأغراض المختلفة

الحماسة — قال بشار بن برد :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى ... وبالشوك والخطى حمر ثعالبه (١)
غدونا له والشمس فى خدر أمها ... تطالعنا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ... وتدرك من نجى الفرار مثالبه (٢)
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة اننا ... بنو الموت خفاق علينا سبائبه (٣)
فراحوا فريق فى الاسار ومثله ... قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

وقال أبو الطيب المتنبى :

وانى لمن قوم كأن نفوسهم ... بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
فلا عبرت بى ساعة لاتعزنى ... ولاصحبتنى مهجة تقبل الظلما

المدح — وقال مروان بن أبى حفصة يمدح معن بن زائدة الشيبانى :—

بنو مطر (٤) يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها فى غيل خفان (٥) أشبل

---

(١) الثعالب جمع ثعلب وهو هنا طرف الرمح الداخل فى جبة السنان : أى والرماح حمر أطراف من دماء الاعداء . (٢) اى مثالب الفرار من الخزى والعار . (٣) جمع سبيبة وهى الشقة من الثياب .
(٤) بطن من شيبان منها معن . (٥) مأسدة قرب الكوفة .

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل

بهاليل[1] في الاسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أول

هم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا أجابوا وان أعطوا أطابوا وأجزلوا

ولا يستطيع الفاعلون فعالهم وان أحسنوا في النائبات وأجملوا

الرثاء : قال الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة :

ألما على معن فقولا لقبره سقتك الغوادي[2] مربعا ثم مربعا

فيا قبر معن أنت أول حفرة من الأرض خطت للسماحة مضجعا

ويا قبر معن كيف واريت جودة وقد كان منه البر والبحر مترعا[3]

بلى قد وسعت الجود والجود ميت ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا[4]

فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعى[5]

ولما مضى معن مضى الجود وانقضى وأصبح عرنين[6] المكارم أجدعا

وقال أشجع السلمي :

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق ولا مغرب الا له فيه مادح

وماكنت أدري مافواضل كفه على الناس حتى غيبته الصفائح

---

(١) البهاليل جمع بهلول وهو السيد الجامع لكل خير . (٢) الغادية :السحابة تنشأ غدوة .

(٣) المترع الملآن . (٤) تصدع : تتصدع أي تتشقق . (٥) ويروى : ترعى فيه الابل . (٦) العرنين : الانف أو أوله مما يلي الحاجبين وهو موضع الشم .

فأصبح في لحد من الأرض ميتا   وكانت به حيا تضيق الصحاصح (١)
وما أنا من رزء وان جل جازع   ولا بسرور بعد موتك فارح
كأن لم يمت حي سواك ولم يقم   على أحد الاعليك النوائح
لئن حسنت فيك المراثي وذكرها   لقد حسنت من قبل فيك المدائح

الهجاء — وقال حماد عجرد :

حريث أبو الصلت ذو خبرة   بما يصلح المعدة الفاسدة
تخوف تخمة أضيافه   فعودهم أكلة واحدة

وقال خلف الأحمر :

لنا صاحب مولع بالخلاف   كثير الخطاء قليل الصواب
ألج لجاجا من الخنفساء   وأزهى اذا مامشى من غراب

وقال أبو علي البصير :

لعمر أبيك مانسب المعلى   الى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت   وصوح نبتها رعي الهشيم (٢)

(١) الصحاصح : جمع صحصح وهو ما استوى من الأرض .
(٢) صوح : يبس . والهشيم : الجاف من النبات .

وقال العتابى :

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء منك مخازيا من اللؤم كانت تحت ستر من الفقر

وقال الابيوردى :

وقصائد مثل الرياض أضعتها فى باخل ضاعت به الاحساب
فاذا تناشدها الرواة وأبصروا الممدوح قالوا : ساحر كذاب

الاعتذار — وقال على بن الجهم للمتوكل :

عفا الله عنك الا حرمة تجود بعفوك أن أبعدا
لئن جل ذنب ولم اعتمد لأنت أجل وأعلى يدا
ألم تر عبدا عدا طوره ومولى عفا ورشيدا هدى
ومفسد أمر تلافيته فعاد فأصلح ما أفسدا
أقلنى أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى

وقال ابراهيم بن المهدى فى أبيات يعتذر بها للمأمون :

الله يعلم ما أقول فانها جهد الألية من مقر خاضع
ما ان عصيتك والغواة تمدنى أسبابها الا بنية طائع

وقال أيضا :

ذنبي إليك عظـــيم وأنت أعظم منـــه
فخذ بحقك أولا فاصفح بفضلك عنـــه
ان لم أكن في فعالـــي من الكرام فكنـــه

وقال الحسن بن وهب :

ما أحسن العفو من قـــادر لا سيما عن غير ذي ناصـــر
ان كان لي ذنب (ولا ذنب لي) فما له غيرك من غافـــر
أعوذ بالود الذي بيننـــا ان يفسد الأول بالآخـــر

الوصف: وقال ابن المعتز يصف طبيعة الكون عند انسلاخ النهار عـــن الليل :

ماترى نعمة السمـــاء على الار ض وشكر الرياض للأمطار ؟
قد تولت زهر النجوم وقد بشـــر بالصبح طائر الاسحـــار
وغناء الطيور كل صبـــاح وانفتاق الاشجار بالانـــوار
وكأن السحاب يجلو عروسـا وكأنا من قطره في نثـــار

وقال ابن طباطبا يصف الليل والنجوم:

رب ليل صحبته كاسف البـا ل كئيبا حليف هم شتيـت
مؤنسا ويحه بطول أنيـــن وهولي موحش بطول السكوت

تحت سقف من الزمرد قـــد رصع حسنك بالدر والياقـــــوت

وقال أبو بكر الصنوبري يصف ديكا :

مغرد الليل ما يألوك تغريـــدا ... مل الكرى فهو يدعو الصبح مجهورا
لما تطرب هز العطف من طـــرب ... ومد للصوت لما مده الجيـــدا
كلابس مطرفا مرخى ذوائبـــــه ... تضاحك البيض من أطرافه السودا
حالى المقلد لو قيست قلائـــده ... بالورد قصر عنه الورد توريـــدا

الاجتماع والسياسة :

وقال يزيد المهلبي من قصيدة يرثي بها المتوكل ويبكت بها بنـــي العباس في نبذهم العرب واستغنائهم بمماليك الترك :

لما اعتقدتم أناسا لاحلوم لهـــم ... ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكـــم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والأنساب تجمعهم ... والمجد والدين والارحام والبلد
اذا قريش ارادوا شد ملكهـــــم ... بغير قحطان لم يبرح به أود (١)

---

(١) عـــــج .

الحكمة والمثل: قال صالح بن عبد القدوس:

وإن من أدبته في الصبا ... كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مونقا ناضرا ... بعد الذي أبصرت من يبسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى في ثرى رمسه
اذا ارعوى عاد الى جهله ... كذي الضنى عاد الى نكسه

وقال بشار بن برد :

اذا كنت في كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا أوصل أخاك فانه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه ؟

وقال أبو الطيب المتنبي :ـ

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
لا يخدعنك من عدو دمعه ... وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم

ومن البلية عذل من لايرعـــوى

عن غيه وخطاب من لايفهـــــم

ومن العداوة مايالك نفعـــه

ومن الصداقـة مايضر ويؤلـــم

....

تراجم لبعض مشاهير العصر

من الشعراء

ابن المعتز

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله ابن أمير المؤمنين محمد المعتز بالله أبرع الناس في الأوصاف والتشبيهات.

ولد سنة ٢٤٨ هجرية في بيت الخلافة وتربى تربية الملوك، وأخذ عن المبرد (١) وثعلب (٢) ومهر في العربية والأدب وكل علم يعرفه أئمة عصره حتى هابه وزراء الدولة وشيوخ كتابها، وعملوا على أن لا يقلدوه الخلافة خشية أن يكف أيديهم عن الاستبداد بالملك، وولوا المقتدر صبيا، ثم حدثت فتن عظيمة فتسرع محمد بن داود بن الجراح (٣) (وكان من أفاضل الكتاب والأدباء) وجمع العلماء والكتاب والقضاة وخلعوا المقتدر، وبايعوا ابن

---

(١) هو النحوي البصري العظيم والأديب الكبير أبو العباس محمد بن يزيد المبرد الأزدي المتوفى سنة ٢٨٥هـ صاحب الكامل والروضة والمقتضب.

(٢) هو النحوي العظيم الكوفي أبو العباس أحمد بن يحيى المشهور بثعلب توفي سنة ٢٩١هـ.

(٣) كان كاتبا عارفا بأخبار الناس ودول الملوك له جملة مصنفات قتل في فتنة ابن المعتز سنة ٢٩٦هـ.

ابن المعتز بالخلافة غير طلب منه ، فلما رأى غلمان المقتدر أن الأمر سيخرج من أيديهم حملوا على أتباع ابن المعتز فاختفى فى دار بعض التجار [1] فقبض عليه وخنق من ليلته ، ودفن بخربة بجوار داره سنه ٢٩٦ هجرية .

وكان ابن المعتز سهل العبارة ، كثير مراعاة البديع فى قوله مع رشاقة وقلة تكلف وتصنع . ولما كان مقامه يجل عن الاكتساب بالشعر قل المدح فى كلامه ، الا فى أهل بيته من الخلفاء وبعض وزراء الدولة ، وزاد فى التشبيهات البديعية ، وأوصاف محاسن الطبيعة ، ومجالس الانس ، ومراسلة الاخوان فى الدعوة اليها ، ووصف الصيد وكلابه وبواشقه وفهوده ، والقلم والقرطاس ، ونحوه ذلك .

والمتأمل فى شعره يعرف فيه نضرة النعيم ، وترف الملك ورقة الخيال ، ولطف الوجدان .

ومن ابتداءاته الجميلة قوله :

---

(١) هو أبو عبد الله الحسين المعروف بابن الجصاص التاجر الجوهرى أخذ منه المقتدر فى حادثة ابن المعتز الفى ألف دينار وسلم له بعد ذلك جمعمائه ألف دينار ، وكان فيه غفلة وله على غنى سقوط ، توفى سنة ٣٢٥ هـ .

أخذت من شبابى الايام ∴ وتولى الصبا عليه السلام
وارعوى باطلى فبان حديث ∴ النفس منى وعفت الاحلام

ومن شعره قوله يصف فصل الربيع :

حبذا أذار شهرا ∴ فيه للنور انتشار
ينقص الليل اذا حل ∴ ويمتد النهار
وعلى الارض اصفرار ∴ واخضرار واحمرار
فكأن الروض وشى ∴ بالغت فيه التجار
نقشه آس ونسرين ∴ وورد وبهار

ومن تشبيهاته قوله فى الهلال :

وانظر اليه كزورق من فضة ∴ قد اثقلته حمولة من عنبر

وقوله :

انظر الى حسن هلال بدا ∴ يهتك من أنواره الحندسا (١)
كمنجل قد صيغ من فضة ∴ يحصد من زهر الدجى نرجسا

أبو الطيب المتنبى

هو أبو الطيب احمد بن الحسين الجعفى الكندى الكوفى المتنبى ، الشاعر الحكيم صاحب الامثال السائرة ، والمعانى النادرة ،

(١) الظلام .

ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ واولع بتعلم العربية من صباه . وكان نادرة
فى الحفظ لا يسأل عن شئ الا استشهد فيه بكلام العرب من
النظم والنثر : وكان أبوه فيها يقال سقاء فخرج به الى الشام،
ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون الا بالمعيشة
بالبادية ،فخرج الى بادية بنى كلب ،وهو بعد فتى لا يزيد عمره
على عشرين سنة ،فأقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ
عنهم اللغة ،اذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية ،حتى أحاط بغريبها
وحوشيها ،فعظم شأنه بينهم . وكانت الأعراب الضاربون بمشارف
الشام شديدى الشغب على ولاتها فوشى بعضهم الى لؤلؤ أمير
حمص من قبل الاخشيدية (١) بأن أبا الطيب ادعى النبوة فى بنى كلب

(١) الدولة الاخشيدية هى دولة استقلت بمصر والشام والحجاز
استقلالا داخليا سنة ((٣٢٤ـ ٣٥٨هـ) ورأسها (محمد بن طغج
الاخشيد مات سنة ٣٤٤ هـ وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور وكان
صغيرا فجعل الاستاذ ابو المسك كافور الخصى الاسود قيما عليه
فمات أنورجور سنة ٣٤٩ وخلفه اخوه على ولم يكن له مع كافور من الامر
شئ ومات سنة ٣٥٥هـ فتولى كافور ملك مصر وجاءه تقليد الخليفة
ومات سنة ٣٥٧هـ فتولى احمد بن على بن الاخشيد فأقام شهورا حتى
جاءت الدولة الفاطمية وفتحت مصر.

وتبعه منهم خلق كثير ، ويخشى على ملك الشام منه ، فخـــرج لؤلؤ الى بنى كلب وحاربهم وقبض على المتنبى وسجنه طويلا ثـــم أطلقه .

وخرج من السجن وقـــد لصق به اسم المتنبى مع كراهتـــه له . ثم تكسب بالـشعر مدة انتهت بلحاقه بسيف الدولة بـــن حمدان (١) فمدحه بما خلد اسمه أبد الدهر ، وتعلم منه الفروسية ، وحضر معه وقائعه العظيمة مع الروم ، حتى عد من أبطال القتـــال طمعا منه أن يكون صاحب دولة . وبقى أثيرا عنده مقدما على جميـــع حاشيته وبطانته مع صلفـــه وتيهه . فوشوا به الى سيف الدولـــة . وكان أشدهم حسدا له ابن خالويـــه النحـــوى (٢) مؤدب سيف الدولة فجرت مناظرة بينه وبين أبى الطيب فى مجلس سيف الدولة ، فضربـــه ابن خالويه بمفتاح حديد فى وجهـــه فشجـــه ولم ينصفه سيـــف الدولة منه ، فقصد أبو الطيب كافورا الاخشيدى أمير مصر ، رجاء أن

---

(١) هو أبو الحسن على أشهر امراء الدولة الحمدانية من قبيلة تغلب وكان سيف الدولة يملك حلب والعواصم ، ثم أخذ دمشق مـــن الاخشيدية ومات سنة ٣٥٦ هـ وكان أخوه الحسن ناصر الدولة يملك الموصل والجزيرة ، وخلف سيف الدولة ابنه سعد الدولة وخلف ناصـــر الدولة ابنه أبو تغلب ثم أخوه الغضنفر .

(٢) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه كان اماما فى اللغـــة والنحو توفى سنة ٣٧٠ هـ .

ينال عنده مالم ينل عند سيف الدولة ومدحه بقصائد سنية . ووعده كافور أن يقلده امارة أو ولاية . ولكنه لما رأى تعاليه في شعره وفخره بنفسه عدل أن يوليه ، وعاتبه بعضهم في ذلك فقال : ياقوم : من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة بعد كافور . فحسبكم . فعاتبه أبو الطيب عتابا أمضه وآلمه ، واستاذن في الخروج من مصر فأبى . فتغفله ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠ هـ وخرج منها يريد الكوفة ومنها قصد عضد الدولة بن بويه بفارس مارا ببغداد فمدحه ومدح وزيره ابن العميد فاجزل صلته وعاد الى بغداد ، وخرج الى الكوفة فخرج عليه اعراب بنى ضبة وفيهم فاتك ابن أبى جهل وكان المتنبى قد هجاهم هجاء مقذعا ، فقاتلهم قتالا شديدا حتى قتل سنة ٣٥٤ هـ . ولا خلاف عند أهل الادب في أنه لم ينبغ بعد المتنبى في الشعر من بلغ شاوه أو داناه على أنهم مجمعون على أن البحترى من حيث رقة اللفظ وحسن التخيل يفضل أبا تمام والمتنبى ويختلفون في المفاضله بين الاخيرين من حيث الحكم والمعنى ولعل المتنبى أرجحهما وقد قال المتنبى الشعر في كل غرض من أغراضه ، وأجاد في وصف المعارك والعتاب والمراثى ، وأما مدائحه فهى اكثر بضاعته : وقلما ترك فيها معنى لم يطرقه وله من الحكم والامثال مايرويه على كل شاعر تقدمه ومامن كاتب أو خطيب أو متكلم أو مناظر أو مدرس الا وله من حكم المتنبى مدد أيما مدد ومن قوله

اذا رأيت نيوب الليث بارزة .. فلا تظنن ان الليث يبتسم

أعيذها نظرات منك صادقة .. أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره .. اذا استوت عنده الأنوار والظلم

يامن يعز علينا أن نفارقهم .. وجداننا كل شيء بعدكم عدم

ان كان سركم ماقال حاسدنا .. فما لجرح اذا أرضاكم ألم

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة .. ان المعارف في أهل النهى ذمم

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم .. ويكره الله ماتأتون والكرم

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا .. ألا تفارقهم فالراحلون هم

ومن قوله يمدح — سيف الدولة ويصف معركة :

أتوك يجرون الحديد كأنما .. سروا بجياد مالهن قوائم (١)

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفي أذن الجوزاء منه زمازم (٢)

تجمع فيه كل لسن وأمة (٣)

فما يفهم الحداث الا التراجم

وقفت وما في الموت شك لواقف

كأنك في جفن الردى وهو نائم

---

(١) كناية عن أنهم مسربلون الخيل بالحديد الى الأرض.

(٢) أصوات الرعد وأراد بها الأصوات الشديدة .

(٣) لغة .

تمر بك الأبطال كلمى (١) هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى الى قول قوم أنت بالغيب عالم

ضممت جناحيهم على القلب ضمة تموت الخوافى تحتها والقوادم

بضرب أتى الهامات والنصر غائب وصار الى اللبات (٢) والنصر قادم

حقرت الردينيات (٣) حتى طرحتها وحتى كأن السيف للرمح شاتم

ومن طلب الفتح الجليل فانما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

نثرتهم فوق الأحيدب (٤) كله كما نثرت فوق العروس الدراهم

ومن قوله يرثى :

ماكنت أحسب قبل دفنك فى الثرى أن الكواكب فى التراب تغور

ماكنت آمل قبل نعشك أن أرى رضوى (٥) على أيدى الرجال يسير

خرجوا به ولكل باك حولـه صعقات موسى يوم دك الطور

حتى أتوا جدثا كأن ضريحـه فى كل قلب موحد محفور

كفل الثناء له برد حياتـه لما انطوى فكأنه منشور

وديوان شعره مشهور ومن شروحه المطبوعة شرح العكبرى وشرح الواحدى

---

(١) مجروحة. (٢) أعالى الصدور.
(٣) الرماح (٤) جبل الحدث .
(٥) جبل بالحجاز.

أبو العلاء المعري

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري التنوخي الشاعر الفيلسوف المتفنن الزاهد ولد بمعرة النعمان (١) سنة ٣٦٣هـ وجدر في الثالثة من عمره فكف بصره ، وتعلم النحو والعربية على أبيه وغيره من أئمة زمانه . وكان يحفظ كل ما يسمعه من مرة . وقال الشعر وعمره احدى عشرة سنة ، ودخل بغداد وأقبل عليه السيد المرتضى (٢) اقبالا عظيما ثم جفاه (٣)

---

(١) بلدة بين حماة وحلب أضيفت الى النعمان بن بشير الصحابي لانه اجتازبها فدفن بها ولدا له ثم أقام بها .

(٢) هو السيد الشريف أبو القاسم علي بن الحسين أخو الشريف الرضي ، وهو صاحب (أمالي السيد المرتضى) توفي سنة ٤٣٦هـ

(٣) وذلك أنه جرى يوما بحضرة المرتضى ذكر المتنبي فتنقصه فقال المعري وكان يتعصب له لو لم يكن له الا القصيدة التي مطلعها لك يا منازل في القلوب منازل لكفاه فضلا فغضب المرتضي وأمر فسحب برجله وأخرج من مجلسه وقال لمن بحضرته : أتدرون أي شيء أراد الاعمى بذكر هذه القصيدة فان للمتنبي ما هو أجود منها ولم يذكرها فقيل السيد النقيب أعرف فقال أراد قوله في هذه القصيدة :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ∴ فهي الشهادة لي بأني كامل

ولما رجع الى المعرة أقام ولم يبرح منزله ونسك وسمى نفسه رهين المحبسين : محبس العمى ومحبس المنزل وبقي فى منزله مكبا على التدريس والتأليف ونظم الشعر ،مقتنعا بعشرات من الدنانير فى العام يحتفلها من عقار له ،ومجتنبا أكل الحيوان وما يخرج منه مدة ٤٥ سنة ،مكتفيا بالنبات والفاكهة ومتعللا بأنه فقير وأنه يرحم الحيوان، وظل عزبا الى أن مات سنة ٤٤٩ هـ بالمعرة ،وأوصى أن يكتب على قبره

هذا جناه أبي علي .. وما جنيت على أحد

وللناس فى اعتقاده أقوال كثيرة وكان أبو العلاء المعرى أحكم من رأى الناس بعد المتنبي يفضله الافرنج ويستعربوهم عليه ،وشعره فى المدائح والمراثى والوصف وبقية أغراض الشعر الادبية أرقى من شعره فى النقد والفلسفة الا أن أكثر شعره من هذا القبيل ضمنه ديوانه المسمى "لزوم ما لا يلزم" فتقيد فيه بقيود حجبت أفكاره ونهكت معانيه وعقدت أساليبه .

ومن مراثيه مرثيته المشهورة التى منها —

غير مجد فى ملتى واعتقادى ... نوح باك ولا ترنم شـاد

وشبيه صوت النعى اذا قيـ ... ـس بصوت البشير فى كل نـاد

ابكت تلكم الحمامة أم غنـ ... ـت على فرع غصنها الميـاد (١)

صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ ... ـب فأين القبور من عهد عـاد ؟

خفف الوطء ما أظن أديم الا ... رض الا من هذه الاجسـاد

وقبيح بنا وان قدم العهـ ... ـد هوان الآباء والاجـداد

سر ان استطعت فى الهواء رويدا ... لا اختيالا على رفات العبـاد

رب لحد قد صار لحدا مرارا ... ضاحك من تزاحم الاضـداد

فاسأل الفرقدين (٢) عمن أحسا ... من قبيل وآنسا من بـلاد

ودفين على زوال نهـار ... وأنارا لمدلج فى سـواد

تعب كلها الحياة فما أعجب ... الا من راغب فى ازديـاد

ان حزنا فى ساعة الموت أضعا ... ف سرور فى ساعة الميـلاد

---

(١) أى أنى لا أعرف الفرق بين صوت النعى وصوت البشير كما لا يعرف الناس صوت الحمامة فبعضهم يحسبه بكاء وبعضهم غناء.

(٢) هما نجمان فى بنات نعش الصغرى (الدب الأصغر).

خلق الناس للبقاء فضلت ... أمة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار أعمال ... الى دار شقوة اشـفاء ؟؟

وهى طويلة ومنها :

بان أمر الاله واختلف النا ... س فداع الى ضلال وهاد
والذى حارت البرية فيه ... حيوان مستحدث من جماد
فاللبيب اللبيب من ليس يغتـ ... ـر بكون مصيره للفساد

ومن قوله الموهم فى اللزوميات :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الايام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

الطغرائى

هو مؤيد الدين الأستاذ العميد فخر الكتاب أبو اسماعيل الحسين ابن محمد الطغرائى صاحب لامية العجم برع فى الكتابة والشعر حتى كان أوحد زمانه وترقت به الحال فى خدمة سلاطين آل سلجوق الى ان صار وزيرا للسلطان مسعود بن محمود السلجوقى صاحب الموصل ولما قهره أخوه السلطان محمود

---

(١) الطغرائى من يكتب الطغراء (وهى الطرة) وكانت تكتب فى الدولة السلجوقية فوق ؟؟ ملء بسخط • معلق فيها نعوت السلطان وألقابه •

كان أول من أعتقل الوزير أبو اسماعيل الطغرائى فدس بعض حسدته من رؤساء الكتاب الى السلطان محمود أنه ملحد فقتله ظلما سنة ٥١٣هـ.

ومن شعره لامية العجم المعتبرة من عيون الشعر، وقد كان قالها ببغداد سنة ٥٠٥ هـ يشكو فيها الزمان وأهله، ومطلعها :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل ... وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

ومنها :

حب السلامة يثنى هم صاحبه ... عن المعالى ويغرى المرء بالكسل
فان جنحت اليه فاتخذ نفقا ... فى الأرض أو سلما فى الجو واعتزل
ودع غمار العلا للمقدمين على ... ركوبها واقتنع منهن بالبلل
رضا الذليل بخفض العيش مسكنة ... والعز تحت رسيم الأينق الذلل

وقال يصف :

وكأنما الشمس المنيرة اذ بدت ... والبدر يجنح للمغيب وما غرب
متحاربان : لذا مجن صاغه ... من فضة ، ولذا مجن من ذهب

وقال يصف غديرا :

عجنا الى الجزع الذى مد فى … أرجائه الغيم بساط الزهـــر

حول غدير ماز ءالمنتـــــى … الى بنات المزن يشكو الضجـــر

لو لاذت الريح سموا بـــــه … لانقلبت وهى نسيم السحـــر

حصباؤه در ورضراضــــــه … سحالة العسجد حول الـــدرر

وقد كسته الريح من نسجهـا … درعا به يلقى نبال المطـــــر

وألبسته الشمس من صبغهـا … نورا به يخطف نور البصـــر

كأنما المرآة مجلـــــوة … على بساط أخضر قد نشـــر

ومن كلامه فى القصص والأمثال :—

شـؤم الوشاية

لقد جاء فى أمثالهم أن ثعلبـا … وذئبا أصابا عند ليث تقدمـــا

أضربه جوع شديد فشفـــه (١) … وأبقى له جلدا رقيقا وأعظمـــا

ففاز لديه الذئب يوما بخلـــوة … فقال :كفاك الثعلب اليوم مطعمـا

فكله وأطعمه فما هو شكلنـا (٢) … ولست أرى فى أكله لك مأثمـــا

فلما أحس الثعلبان (٣) بكيـده … تطبب عند الليث واحتال مقدما

---

(١) شفه الهم والمرض أنحله.
(٢) أى وأطعمنا منه،
(٣) الثعلب المذكر.

وقال: أرى بالملك داء مماطلا ... تهدم منه جسمه وتحطما

وفى كبد الذئب الشفاء لدائه ... فان نال منها ينج منه مسلما

فصادف منه ذا قبولا فعندها ... أحال (١) على الذئب الخبيث فصمما

فأقلت مسلوخ الاهاب (٢) مرملا (٣) ... فلما رآه الثعلبان تبسما

وصاح به بالابرالثوب قانئا (٤) ... متى تخل بالسلطان فامكث لتسلما

البهاء زهير

هو الوزير الشاعر الكاتب أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد ابن على المهلبى الأزدى المصرى صاحب السهل الممتنع ، والغزل الرقيق ، والعتاب الرقيق .

ولد بوادى نخلة قرب مكة سنة ٥٨١ هـ ونشأ بمصر وأجاد فنون العربية ، فبرع نظما ونثرا وخطا ثم اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب (من ملوك الدولة الايوبية) وخرج معه فى خدمته الى بلاد الشام والجزيرة . فلما نكب الملك الصالح بخيانة عسكره وانضوائهم الى ابن عمه الملك

---

(١) أقبل . - (٢) الجلد .

(٣) أى ملطخ بالدم . (٤) أى شديد الحمرة .

الناصر صاحب الكرك وقبض على الصالح واعتقله بقلعة الكــرك حفظ البهاء عهد صاحبه ولم يخدم غيره وأقــام بنابلــس حتى تقلبت الأحوال ، واسترد الصالح ملك الديــار المصريــة فقدم اليها فى خدمته واتخذه وزيره وموضــع سره وأحلــه منزلة لم تكن لغيره ، لحسن وفائه وبقى أثــيرا عند الملــك الصالح حــتى مات فلــزم داره . وحدث فى القاهرة فــى شوال سنة ٦٥٦ هـ وباء مات به وهى السنــة التى سقطــت فيها بغداد فى أيدى التتار .

وكانت سهولة طباع زهــير فوق سهــوله شعره وأكــثر معانيه عاديــة عامية ، الا أنه كساها ديباجة من لفظــه وسهولة أسلوبــه رفعتها فى أعين أهل الذوق الى مرتبة أحرار المعانى .

ومن شعره فــى غير الغــزل وقد غرقــت به سفينــة فسلم بنفسه منها وذهب ماكان معه :

لاتعتب الدهر فى خطب رماك به ان استرد فقدما طالما وهبــا
حاسب زمانك فى حالى تصرفــه تجده أعطاك أضعاف الذى سلبا

والله قد جعل الايام دائرة   فلا ترى راحة تبقى ولاتعبا

ورأس مالك وهى الروح قد سلمت   لاتأسفن لشئ بعدها ذهبا

ماكنت أول مفروح بحادثة   كذا مضى الدهر لابدعا ولاعجبا

ورب مال نما من بعد مرزئة   أما ترى الشمع بعد القطف ملتهبا

وقال يمدح :

أنا ذا زهير ليس الا جود كفك لى مزينة (١)

أهوى جميل الذكر عنك   كأنما هو لى بثينة (٢)

فاسال ضميرك عن ودا   دى انه فيه جهينة (٣)

وله لغزفى قفل :

وأسود عار أنحل البرد جسمه   وما زال من أوصافه الحرص والمنع

وأعجب شئ كونه الدهر حارسا   وليس له عين وليس له سمع

---

(١) يشيرالى زهير بن أبى سلمى المزنى الجاهلى مادح هرم بن سنان

(٢) يشيرالى جميل الشاعرالمحب صاحب بثنية .

(٣) يشيرالى قبيله جهينة المضروب بها المثل فى تعرف الاخبار.

الشعر في الدولة الأيوبية

لما ظفر صلاح الدين بملك الفاطميين ، ورد غارات الصليبيين التف الشعراء بمصر والشام حوله ، وكان صلاح الدين يفهم الشعر ويهتز له ، وكان جوادا سخيا .

فأسباب نمو الشعر في عهد صلاح الدين ، أنه مجاهد غاز في سبيل الله ، جواد فياض اليدين ، يدرك أسرار بلاغة الشعر ، وكان وزيره القاضي عبد الرحيم البيساني ، وهو امام البلاغة في فني المنظوم والمنثور (توفي سنة ٥٩٦ هـ) . وكان كاتبه ورفيقه في أسفاره عماد الدين الأصبهاني العبقري . مات سنة ٥٩٧ هـ .

وجرى خلفاء صلاح الدين على سنته وان لم يبلغوا مبلغه ، فكان للشعر والأدب في أيامهم سوق رائجة . ومن أشهر شعراء هذه الدولة نصر الله بن قلاقس الاسكندري ، وكان شاعرا مجيدا مدح القاضي الفاضل ودخل اليمن ومدح ياسرا وزيرها ، فأجزل صلته .

ولد بثغر الاسكندرية سنة ٥٣٢ هـ وتوفي بعيذاب سنة ٥٦٧ هـ ومن مبدعيهم القاضي السعيد بن سناء الملك هبة الله ، وكان شاعرا محظوظا في الدنيا ، فنانا في بدائعه وأخيلته ، وله ديوان جمع موشحات سماه دار الطراز .

وكانت له صلة وثيقة بالقاضى الفاضل ، وكانت بينهما رسائل ومطارحات شعرية .

ومن جيد شعره القصيدة المشهورة التى منها :

سواى يخاف الدهر أو يرهب الردى وغيرى يهوى أن يكون مخلدا
ولكننى لا أرهب الدهر ان سطا ولا أحذر الموت الزؤام اذا عدا
ولو مد نحوى حادث الدهر كفه لحدثت نفسى أن أمد له يدا

ومن الشعراء المبرزين ابن الساعاتى ، ومن قوله :

؟؟ لله يوم فى سيوط وليلة صرف الزمان بأختها لا يغلط ؟؟
والطل فى تلك الغصون كلؤلؤ رطب يصافحه النسيم فيسقط

(مات بالقاهرة سنة ٦٠٤ هـ)

وكان فى هذا العصر كمال الدين بن النبيه الشاعر المصرى الرقيق ، مدح بنى أيوب ، وأقام فى نصيبين (توفى بها سنة ٦١٩ هـ) .

وله القصيدة الرائعة : التى منها :-

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله لكنه ربما مرت أواخره

وهو من أهل صعيد مصر نشأ بقوص ، ثم اتصل بخدمة الملك الصالح الايوبي " ويصور شعره الرقة المصرية ، كتب الى البهاء زهير وقد سأل عنه وهو مريض :

أيا من راح عن حالي يحاول مشفقا حدبـا
ومن أضحى أخالـي في الوداد وفي الحنو أبا
وحقك لو نظـرت الي كنت تشاهد العجبا
جفون تشتكي غرقـا وقلب يشتكي لهبـا

(توفي بالقاهرة سنة ٦٤٩هـ)

عمر بن الفارض

وهو عمر بن علي بن المرشد الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦هـ.

وكان من أعماله كتابة "فروض النساء" لذلك سمي ابنه بابن الفارض قابل أحد الصوفية فنصح له أن يذهب الى مكة فسافر اليها، وأقام بها خمس عشرة سنة، ثم عاد الى القاهرة فكان موضع اجلال الناس.

وتوفي بها سنة ٦٣٢هـ، ودفن بالقرافة بسفح المقطم.

وديوان شعره مشهور ذائع، وهو شعر صوفي، يكثر فيه البديع مع الاجادة والرقة، وقد اشتهرت تائيته الكبرى التي جمع فيها كثيرا من حقائق طريقة القوم، وعدد أبياتها واحد وستون وسبعمائة بيت، وأولها:

سقتني حميا الحب راحة مقلتي وكأسي محيا من عن الحسن جلت

ومن تائيته الصغرى:

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتي فياحبذا ذاك الشذا حين هبت
تذكرني العهد القديم لأنها حديثة عهد عن أهيل مودتي
فلي بين هاتيك الخيام ضنينه على بجمعي سمحة بتشتتي
محجبة بين الأسنة والظبا اليها انثنت ألبابنا اذ تثنت

تتيح المنايا اذ تتيح لنا المنى وذاك رخيص منيتي بمنيتي

متى أوعدت أولت وان وعدت لوت وان أقسمت لاتبرئ السقم برت

ومنها :

ودع عنك دعوى الحب واختر لغيره

فؤادك وادفع عنه غيك بالتي

غرامى أتم صبرى انصرم دمعى انسجم

عدوى انتقم دهرى احتكم حاسدى اشمت

....

الكتـــابة

انتقلت الكتابة العربية فى هذا العصر من الاقتصار على جزالـــة اللفـظ ووضوح الدلالة والايجاز وقلة السجع الى التعمل والمغـــالاة فى الصناعة اللفظية ،باستعمال المحسنات البديعية ،من التـــزام السجع بأنواعه والجناس والطباق والتورية ،والتكلف فى ذكر المجـاز والاستعارة والتشبيه وكثرة التضمين ،والاقتباس للاحاديث والأمثـــال والحكم والأبيات المشهورة وبث الفرس فى الكتابة كثيرا من ألقـــاب التعظيم والتبجـيل ،وأدخلت بعض العبارات الفلسفية فى كتابــــة الرسائل كما فى كتابة ابن العميد وغيره.

ثم اطلع بعض الكتاب النابهين على شئ من أساليب القـــصص الفارسية سواء أكان ذلك بالسماع أم بالقراءة ،وأخذوا فى محاكاتهـــا فنشأ من ذلك الرسائل القصصية المعروفة بالمقامات.

وبلغت الكتابة فى هذا العصر شأوا لم تبلغه فى أى عصر من عصـور اللغة من حيث الصناعة اللفظية . وكان فى هذا العصر أعلام الكتاب وكبار الأدباء كابن العميد والبديع ،والخوارزمى والحريرى والصابى ،والعمـاد الأصبهانى ولم تعرف اللغة مثل هؤلاء بعد الجاحظ وابن المقفع ومـــن عاصرهما.

ولكن الكتاب اقتصروا على كتابة الدواوين والاخوانيات والرسائل الأدبية ولم يعنوا بالموضوعات العامة كالقصص والتوسع في أخيلة المقامات وأغراضها .

ولاشك في أن استيلاء الاعاجم على الدولة الاسلامية كان من أسباب اتجاه الكتابة الى العناية بالزخرف اللفظي والانصراف عن الأسلوب العربي الذي امتاز به كتاب العصر الأول .

ابن العميـــد

هو الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد . ولد في سنة ٣٠٠هـ وتوفي سنة ٣٦٠هـ . وهو من أصل فارسي . كان والده مشهورا بالعلم وحسن التدبير فاتصل ببني بويه وساعدهم على تأسيس دولتهم . وقد تربى ابن العميد ونشأ على ما كان عليه أبوه فاستوزره ركن الدولة بن بويه وصقل ذوقه في الكتابة ، ومعرفته بفنون الكلام ، والميل الى تهذيب العبارات والاشتغال بانشاء الرسائل حتى برع في الكتابة دون غيرها من الفنون والعلوم وكان من أئمة البلاغة في زمانه ، وقد كانت العناية بالصناعة اللفظية في عصره تفوق كل شيء . فلما ذاع أمر ابن العميد في الكتابة اتبع الناس طريقته وولعوا بها ، وانتشر أسلوبه في العالم العربي ، ولاسيما بلاد العراق وخراسان وما جاورها . وعرفت طريقته بطريقة ابن العميد . وهي أن تكون مسجعة قصيرة الفقرات مع شيء من المحسنات البديعية ، وتنميق العبارة واختيار الجمل والألفاظ واقتباس الأشعار المشهورة ، والأحاديث المأثورة والأمثال السائرة ، والمعروفة والآيات القرآنية . حتى قالوا " بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد ".

القاضي الفاضــــل

ولد بمدينة عسقلان (١) سنة ٥٢٩ هـ ، وأخذ عن أبيه الأشــــرف قاضي عسقلان بهاء الدين طرفا من علوم اللغة والأدب . ثم قـــدم الى مصر في صباه لتعلم الكتابة ، وكان ذلك في أواخر دولة الفاطميين ونزل بمدينة الاسكندرية ، ولازم قاضيها ابن حديد ، وتعلم عليه . ولما برع في الكتابة وعرف فضله انتقل الى القاهرة ، وصار من كتاب الظافر وشاع فضله فاتخذه صلاح الدين الأيوبي وزيرا له عندما استولى على مصر ثم كان وزيرا لأولاده يدبر الملك ويسوس أمور الدولة ويتنقل بين مصـــر والشام يتعرف أخبار الأدباء والكتاب في بلدان المشرق حتى توفي سنـــة ٥٩٦ هـ .

كان أسلوب ابن العميد قد ذاع قبل ذلك في العراق وما جـــاوره فوقف القاضي الفاضل على صنعة الكتابة ، لدى كبار الكتاب في المشـــرق والمغرب وعمل على ابتكار طريقة جعل أساسها الصناعة اللفظية ، وأخصها السجع والتورية والجناس ومراعاة النظير والاستعارة وغيرها . فانتشـــرت طريقة القاضي الفاضل بمصر حتى كانت مذهبا لكتابها ، بل تخطت مصـــر الى غيرها من البلدان ، كما تخطت طريقة ابن العميد بلاد الجزيرة ومـــا حولها من المدن الاسلامية وقد كان من جراء ذلك أن شغل الكتـــاب بالألفاظ والصناعة عن المعاني .

(١) بلدة كانت على ساحل فلسطين وموضعها الآن خرب .

من رسائل القاضي الفاضل

كتب القاضي يعزي الملك العادل في الملك العزيز :

" أدام الله سلطان مولانا الملك العادل ، وبارك في عمره ، وأعلى أمره بأمره وأعز نصر الاسلام بنصره ، وفدت ه الانفس الكريمة ، وأصغر الله العظائم في نعمته العظيمة ، وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام في مواقف العلام الجسيمة ، وينقلب عنا بالامور المسلمة والعواقب السليمة ولانقص له رجالا ولاعددا ، ولا أعدمه نفسا ولا ولدا ، ولاقصر له ذيلا ولايدا ولا كدر له خاطرا ولاموردا . ولما قدر الله ماقدر في الملك العزيز ، رحمة الله عليه وتحياته مكررة اليه ، من انقضاء مهله وحضور أجله ، كانت بديهة (١) المصاب عظيمة ، وطالعة المكروه أليمة ، فرحم الله ذلك الوجه ونضره ، ثم الى الجنة يسره .

وإذا محاسن أوجه بليت   فعفا الثرى عن وجهه الحسن

---

(١) بدهه الرجل بغتة وفاجأه .

رثاء العماد للقاضي الفاضل

"..وهو المولى القاضي الأجل ،وواحد الزمان ،العظيم الشأن ، رب القلم والبيان ،واللسن واللسان ،والقريحة الوقادة ،والبصيرة النقادة والبديهة المعجزة ،والبديعة المطرزة ،والفضل الذى ما سمع له بمماثل فى الأوائل ، من لو عاش فى زمانه لتعلق بغباره ،أوجرى فى مضماره ـ فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ،ورسخت بها الصنائع يخترع الأفكار ،ويفترع الأبكار ،ويطلع الأنوار ويبدع الأزهار أين قيس فى مقام حصافته ،وحاتم وعمرو فى سماحته وحماسته لامن فى فعله ،ولامين فى قوله ،ولاخلف فى وعده ،لابطء فى رفده ".

....

المقامـــــات (١)

كان من أثر اتصال كتاب العربية بالفرس ، وتنقلهم في أفغانستان وخراسان وبلاد فارس ، أن اتصلوا بالحياة الاجتماعية ، وخالطوا العامة من الناس وسمعوا شيئاً من أقاصيصهم وأحاديثهم ، فأخذوا في محاكاة بعض تلك الأحوال ونقلها الى اللغة العربية . وقد كان أثر الحيـــاة الفارسية قبل هذا العصر دخل في لغة العرب ، بما كتبه ابـــن المقفع وسهل بن هارون وغيرهما . فظهر أثر ذلك في الكتابة النثريـة ، فلما كان هذا العصر ظهر أسلوب المقامات المحتوي على قصص قصيرة ، يصف فيها الكاتب أحد الناس وأخلاقه ، ويذكر بها بعض الحوادث ، والاماكن بأسلوب مسجع طريف . وكان النثر الى هذا العصر مقصوراً على الرسائل وكتابة الدواوين والفصول الادبية ولم يكن الاسلوب القصص قد تسرب بعد الى الكتابة العربية فلما كتب بديع الزمان مقاماته ، كانت تلك المقامات نوعاً جديداً في أساليب النثر العربي ، وسار على أسلوب الهمذاني من جاء بعده من الكتاب أصحاب المقامات كالحريري وغيره .

(١) المقامة لغة المجلس والجماعة من الناس ، ثم أطلقت في عصر بني أمية وصدر الدولة العباسية على ما يحكى في المجالس من القصص والسير وكل ما يكسب السامع علماً وأدباً . ثم شاع استعمالها بعد ذلك على ما يقصه أهل الكدية والشحاذون من الادباء بلغة عربية فصيحة مملوءة بالتعمل والصناعة اللفظية حتى صار أسلوبها من نماذج أساليب النثر في الادب العربي وقد اذاعت أساليب المقامات بين كتاب العربية على نحو ما كتب الهمذاني والحريري .

وتحسب المقامات من أول بذور النثر القصصي في الأدب العربي

مقامات الهمذاني : أما مقامات الهمذاني فهي حكايات أو قصص قصيرة ، انتزعها بديع الزمان من الحوادث التي وقعت له أو شاهدها في أثناء رحلاته الكثيرة في بلاد خراسان وما جاورها . فكتب مقاماته وعزاها إلى رجل سماه أبا الفتح الاسكندري . ونسب روايتها الى رجل آخر سماه عيسى بن هشام : -

وموضوع مقاماته أن رجلا محتالا أديبا هو أبو الفتح الاسكندري كان يجول في البلاد ويتفنن في أساليب الاحتيال للحصول على المال وكل مقاماته التي تنيف على الخمسين لاتخرج عن هذا الغرض ، ولكنها تمتاز برقة أسلوبها ، وسلامة ألفاظها واختيار عباراتها ، واشتمالها على كثير من المعاني الطريفة ، والألفاظ اللغوية وعدم التكلف الظاهر حتى لقد يبدو أحيانا أن أسلوبها أقرب الى الكلام الفطري منه الى التعمل والصنعة وهي مسجوعة ، ولكن سجعها رقيق سهل ، احتوى على كثير من المحسنات البديعية ، والاستعارة والمجاز .

(١) أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني الملقب ببديع الزمان ولد بمدينة همذان أواسط القرن الرابع الهجري ، وحذق علوم اللغة العربية والفارسية . وتنقل في كثير من بلاد خراسان وذاع أمره في نيسابور وهناك كتب مقاماته وتوفي سنة ٣٩٨هـ .

من مقامات الهمذانى

من المقامة الحلوانية ـ حدثنا عيسى بن هشام قال : لما قفلت من الحج فيمن قفل ، ونزلت حلوان مع من نزل ، قلت لغلامى : أجد شعرى طويلا وقد اتسخ بدنى قليلا ، فاختر لنا حماما ندخله ، وحجاما نستعمله وليكن الحمام واسع الرقعة ، نظيف البقعة ، طيب الهواء ، معتدل الماء وليكن الحجام خفيف اليد ، حديد الموسى ، نظيف الثياب قليل الفضول فخرج مليا ، وعاد بطيا ، وقال : قد اخترت كما رسمت ، فأخذنا الى الحمام السمت : وأتيناه فلم نر قوامه ، ولكنى دخلته ودخل على أثرى رجل وعمد الى قطعة طين فلطخ بها جبينى ، ووضعها على رأسى ثم خرج ودخل آخر ، فجعل يدلكنى دلكا يكد العظام ، ويغمزنى غمزا يهد الأوصال ، ويصفر صفيرا يرش البزاق . ثم عمد الى رأسى يغسله والى الماء يرسله وما لبث أن دخل الاول فحيا أخدع الثانى ، بمضموته فقعقعت أنيابه . وقال : يالكع مالك ولهذا الرأس وهو لى . ثم عطف الثانى على الاول بمجموعة هتكت حجابه ، وقال : بل هذا الرأس حقى وملكى وفى يدى . ثم تلاكما حتى عييا ، وتحاكما لما لقيا . فأتيا صاحب الحمام فقال الاول : أنا صاحب هذا لانى لطخت جبينه ، ووضعت عليه طينه وقال الثانى : بل أنا مالكه لانى دلكت حامله ، وغمزت مفاصله . فقال الحمامى : ائتونى بصاحب الرأس أسأله ألك هذا الرأس أم له .

فأتياني ،وقالا : لنا عندك شهادة فتجشم ،فقمت وأتيت ،شئت أم أبيت فقال الحامي : يارجل لاتقل غير الصدق ،ولاتشهد بغير الحق وقل لي هذا الرأس لأيهما ؟ فقلت : ياعفاك الله،هذا رأسي قد صحبني في الطريق ،وطاف معي بالبيت العتيق ، وماشككت أنه لي ...الى آخر المقامة.

مقامات الحريـــرى

ممن نسج على منوال الهمذانى فى مقاماته القاسم بن علـــى الحريرى (١) فقلده فى أسلوبها ونظمها وموضوعاتها وصفات راويها . فقد جعل أبا زيد السروجى الذى عزى اليه مقاماته مثل أبى الفتح الاسكندرى : رجلا أديبـــا محتالا وكانت موضوعات فى مقاماته أشبة بموضوعات مقامات البديع لأنّ الحريرى وصف أبا زيد السروجى بأنه فقير محتال مستعمل ذكاءه وقوة بيانه فى عطف الناس عليه واستدرار أموالهم " وكل مقاماته وصف لنفس هذا الرجل وأو صور لبعض النـــاس ولاسيما الأدباء منهم . فبيان لنا هو كامن فى نفوسهم من أطمـــاع وحيل واستعمال ما وهبوا من فصاحة وبلاغة فى ذلك وقد أطنب الحريرى فى ذكر صفات أبى زيد السروجى كما أطنب الهمذانى فى صفات أبى الفتح الاسكندرى وأما أسلوب مقاماته فأظهر شيء فيه تعمد السجـــع والصناعة اللفظية ولكن التكلف لا يظهر فى كثير منها ومن ميزات أسلوب هذه المقامات أنهـــا جمعت ألفـــاظ لغويـــة وجمـــــل مختارة وأمثال سائرة وأشعار رقيقة .

(١) ولد أبو القاسم بن على الحريرى سنة ٤٤٦هـ بقرب مدينة البصـــرة ونشأ بالبصرة - فاتصل بكثير من علماء اللغة العربية وأخذ عنهم فنونها وعرف كثيرا من مفرداتها حتى صار اماما فى ذلك وألف كتبا فى اللغة منها درة الغواص فى أوهام الخواص . فكان شاعرا وأديبا وكاتبا وبر مؤلفا " ومن أشهر ما كتب مقاماته المعروفة . وحسب الحريرى بهذه المقامات من أشهر أدباء العرب وأكبر كتابهم .

التدوين والتأليف في العصر العباسي الثاني
في العراق وخراسان ومصر والشام

منذ العصر العباسي الثاني لم تعد الدولة الاسلامية دولة واحدة يرجع ولاة الاقاليم فيها الى رئيس واحد هو الخليفة بل تعددت الدول واستقلت بشؤونها ، ان اعترف بعضها احيانا بالخليفة العباسي ببغداد فاعتراف اسمي أما الحقيقة فهي أن كل دولة مستقلة بنفسها فالدولة البويهية في العراق وفارس وخراسان (٣٢٠-٤٤٧هـ) وخلفتها الدولة السلجوقية ، والدولة الفاطمية بمصر (٣٥٧-٥٦٧هـ) خلفها الايوبيون ، والدولة الحمدانية فيما بين النهرين وحلب (٣١٧-٣٩٤هـ) وخلفها الفاطميون في الشام والدولة السامانية فيما وراء النهر (٢٦١-٣٨٩هـ) الى كثير من هذه الدول.

وانقسام الدولة هذه الاقسام - ان أضعف الدولة سياسيا في كثير من الاحيان - لم يضعفها علميا بل كان الامر عكس ذلك ، فقد كانت هذه الدول المختلفة تتبارى في تشجيع العلم وتعد من مظاهر عظم الدولة أن تتزين بمشهوري العلماء واستدعائهم من أقاصي البلدان وتشجيعهم بما تغدق عليهم من المال.

وأنشأ الفاطميون بمصر دور الكتب العامة وعقدوا فيها المناظرات وعنوا بالفقه الشيعي والدعوة الى مذهبهم ، كما عنوا بعلم الفلك.

وخلف الفاطميين فى مصر والشام الأيوبيون ، وقد قضوا على المذهب الشيعى فى مملكتهم وأحيوا مذهب أهل السنة وقربوا العلماء والأدباء .

ومن أجل هذا سارت النهضة العلمية فى تقدمها المطرد ولم تتأثر بالانقسام السياسى ، فكانت الحركة العلمية ، وانتاج المؤلفين اكثر مما كان فى العصر العباسى الأول من حيث الكم ومن حيث الكيف ، فقد كان اكثر النتاج العلمى فى العصر العباسى الأول جمعا ونقلا من اللغات المختلفة فصار فى العصر الثانى هضما وابتكارا وانتاجا جديدا فى كثير من الأحيان ونبغ العلماء فى كل فن من فقه وحديث وتاريخ وجغرافيا ولغة وفلسفة وغيرها ، وكثرت دور الكتب وقصدها طلاب العلم وزخرت بالكتب من كل فن كمكتبة العزيز الفاطمى بالقاهرة ، ودار الحكمة التى أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمى ، ومكتبة سابورين أردشير فى بغداد وهكذا .

التدوين فى الأدب - ومن أظهر ما حدث فى هذا العصر فى كتب الأدب الميل الى الجانب العلمى وصبغ الكتب صبغة فلسفية والعناية بتراجم الشعراء والكتاب ترجمة مفصلة على نحو مافعل المحدثون فى رجال الحديث ، فألفت كتب فى نقد الشعر والشعراء والطعن فيهم والانتصار لهم ، كما فعل الآمدى فى كتابه الموازنة بين أبى تمام والبحترى سنة ٣٧٠هـ ، وقد نقد الشاعرين نقدا محكما وأبان ما للشاعرين من محاسن ومساوىء ، وكما فعل الصاحب بن عباد .

فقد وضع كتابا فى بيان عيوب المتنبى ، وانتصر للمتنبى آخرون فوضع القاضى عبدالعزيز الجرجانى كتابا وقف فيه موقف الحكم بين المتعصبين له والمتعصبين عليه سماه " الوساطة بين المتنبى وخصومه "

ومن أشهر كتب الأدب المؤلفة فى هذا العصر : كتاب " الأغانى " لأبى الفرج الأصفهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ وهو عربى من نسل بنى أمية ، ولد بأصفهان وانتقل الى بغداد ، ويعد كتابه الأغانى أجمع الكتب فى تراجم الشعراء والأدباء وأخبار العرب فى الجاهلية والاسلام .

كذلك من أهم الكتب التى ألفت فى تراجم الشعراء : كتاب : " يتيمة الدهر " لمؤلفه أبى منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ وقد ترجم فيه لشعراء المائة الرابعة ، ولذلك سماه " يتيمة الدهر " فى شعراء أهل العصر " وقد رتبه ترتيبا حسنا باعتبار الأقطار ، فترجم لشعراء الشام ، ولشعراء مصر والمغرب ولشعراء الموصل ، ولشعراء البصرة ، ثم العراق ، ثم بغداد ، ثم ذكر محاسن الدولة السامانية وترجم لشعرائها ، ثم لفضلاء خوارزم .

وقد تأثر بلغة العصر ، فكاد يلتزم فى تعبيره السجع ويلحق بكتب الأدب كتب القصص ، ومن أشهرها " كتاب ألف ليلة وليلة وهو قصة نقل أساسها فى القرن الثالث الهجرى ولكن زادت قصصها وغيرفيها على توالى العصور كما يدل على ذلك أخبار فيها حدثت فى أيام المماليك .

علم اللغة - بدأ علماء اللغة في العصر العباسي الأول يجمعون اللغة مما يسمعون من العرب شفاها ، فكانوا يخرجون الى البادية ليسمعوا من فصحاء الأعراب ، وكان الأعراب أنفسهم يفدون الى العراق فيأخذ عنهم العلماء ، ولم يكن جمعهم خاضعا لأي ضرب من ضروب الترتيب ، ثم أخذوا يجمعون الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في أوراق سموها كتابا ، كما فعل الأصمعي في كتاب الخيل والابل والكرم الخ . وفي ذلك العصر أيضا خطر للخليل بن أحمد المتوفي سنة ١٨٠ أن يجمع الكلمات العربية التي وصلته ويكون منها معجما ، فرسم لذلك كتاب العين ورتبه على حسب مخارج الحروف مبدأه بحروف الحلق وختمه بحروف الشفة ، ولكن كان استخراج الكلمة منه شاقا ، وجاء بعده ابن دريد المتوفي سنة ١٨٨ فألف كتاب الجمهرة على هذا النمط .

حتى أتى العصر الثاني فألفت فيه معاجم كثيرة كالتهذيب للأزهري سنة ٣٧٠ هـ والمجمل لابن فارس سنة ٣٩٠ ثم جاء الجوهري المتوفي سنة ٣٩٨ تركي الأصل من فاراب فألف كتابه الصحاح وقد وضعه على منهج جديد فحذف المهمل ورتبه على حسب حروف الهجاء المعروفة وراعى اخر الكلمات بعد تجريدها من زوائدها ، وجعل آخر الكلمة بابا وأولها فصلا ، واقتصر فيه على الكلمات التي صحت عنده ، ولذلك سمى كتابه الصحاح . وقد جرى على هذا النمط كثير من المعاجم التي ألفت بعده كالقاموس المحيط للفيروزابادي ولسان العرب لابن منظور .

ومن أشهر كتب اللغة المؤلفة في ذلك العصر "المخصص" لابن سيده الاندلسي المتوفى سنة ٤٥٨ وقد نحا فيه نحو آخر اذ جمع كل الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد فمثلا كل الكلمات التي تتعلق بالابل جمعها ورتبها فصولا ففصل في أسنان الابل وفصل في أمراضها وهكذا وهو كثير الفائدة وخاصة للذين يعرفون معنى من المعاني أو مسمى من المسميات ولا يعرف له لفظا يدل عليه.

كذلك مما ألف في هذا العصر من كتب اللغة كتاب "الفائق في غريب الحديث" و"أساس البلاغة" وكلاهما للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ وقد نحا فيهما منحى خاصا اذ جعل ترتيبه أوائل الحروف في الكلمة لا أواخرها . وقد تبعه في ترتيبه بعض المعاجم التي وضعت بعده كالمغرب للمطرزي والنهاية لابن الأثير والمصباح المنير.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
الشعر فى مصر	٧٨
الشريف الرضى	٨٣
الشعر خارج بغداد بعد انقسام الدولة	٨٤
السرى الرفاء	٨٦
الشعر	٩١
دلائل تأثر الادب بالحياة السياسية والاجتماعيه فى العصر العباسى الثانى	١٠١
الحياة الاجتماعيه وأثرها فى العلم والادب فى هذا العصر	١٠٧
نماذج من الشعر فى الاغراض المختلفة	١١٠
الحماسة	١١٠
المدح	١١٠
الرثاء	١١١
الهجاء	١١٢
الاعتذار	١١٣
الوصف	١١٤
الاجتماع والسياسة	١١٥
الحكمة والمثل	١١٦
تراجم لبعض مشاهير العصر من الشعراء	١١٨
ابن المعتز	١١٨
أبو الطيب المتنبى	١٢٠
أبو العلاء المعرى	١٢٥
الطغرائى	١٢٨
البهاء زهير	١٣١
الشعر فى الدولة الايوبية	١٣٤

الموضوع	الصفحه
	١٥٣

الفهرس